

كتاب
دروس قرآنية للمسيحيين
مدخل إلى كتاب المسلمين المقدس

تأليف القس/ باول شفارتزيناو

رؤية نقدية

أ.د. محمد عطا يوسف









مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

المقدمة[1]:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١- ٥].

وأشْهَدُ ألّا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، وصَفِيُّه مِن خَلْقِهِ وحبيبه، **وبعد:**

يَشهَدُ واقعنا الآن حِوارًا نَشِطًا بين الأديان السماوية، وخاصّة بين المسيحية والإسلام، ويفرِضُ هذا الواقع علينا -نحن المسلمين- أن ننطلقَ في حوارنا مع الآخر مِن حقائقَ ثابتةٍ، لا تتغيَّرُ بتغيُّرِ الأجيال، منها:

- إنَّ الديانةَ المسيحية لم تكتمِلْ إلا بالدّيانة الإسلامية، وإنَّ عيسى عليه السلام هو عبد الله ورسوله، ليس بإلهٍ، ولا ابن إله، وأنَّ أمَّه مريم عليها السلام كذلك، لا شأنَ لها بالأُلوهيَّة، وأنَّه عليه السلام لم يُصْلَبْ، كما أخبَرَنا بذلك القرآن الكريم، وردَّدَه المنصفون مِن المسيحيين أيضًا.

---

(١) نُشر هذا البحث سابقًا في مجلة (دار علوم)، عام ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م.

- إنَّ محمدًا ﷺ هو خاتمُ الأنبياءِ والرُّسُل، ولا نبيَّ بعده، وإنّ القرآن الكريم هو كلامُ اللهِ المُنَزَّلُ مِن اللّوحِ المحفوظ، وهو آخِرُ الكُتُبِ السماوية نزولًا، أنزلَه الله -وتعَهَّدَ بحفظه- على محمد ﷺ؛ ليكونَ دافعًا للإنسانية إلى أعلى درجات الرقيِّ العقليِّ والحضاريّ.

- إنّ الإسلام دينٌ عالَمِيٌّ، لا يَختصُّ بجنسٍ دون آخر، ولا مَيْزَةَ للجنسِ العربيِّ الذي نزلَ القرآنُ بلغته إلا بالتقوى والعمل الصالح.

- إنّ إيماننا بهذه الحقائق وغيرها لا يكسبها اقتناعًا مِن الآخرين بها، وإنما تكتسبه إذا وصلَتْ إليهم عن طريق أساطين العلم، أو قادة الفكر الديني مِن بني جنسِهِم، ومِن أتباعِ ديانتِهِم، وهذا ما رأيتُ بعضَه في كتاب: (دروس قرآنية للمسيحيين: مدخل لدراسة كتابِ المسلمين المقدّس)، لعالِم الديانات القسّ/ باول شفارتزيناو، المسيحي الديانة، البروتستانتي المذهب، الألماني الجنسية، وهذا العالِم القسّ المسيحي البروتستانتي (باول) إضافةً إلى أنه جذَبَ انتباهَ المسلمين والمسيحيين إلى عنوانِ كتابه؛ حيث جمع فيه بين عنصرين متباعدين أو متناقضين، فإنه قد ضمَّنه هذه الحقائق الجريئة التي ذكرتُها آنفًا، والتي -ربما- لا نستطيع نحن المسلمين في كثير مِن الأحيان أن نتّخذها مُرتَكَزًا للحوار مع الآخر.

لكن (باول) -كغيره من الباحثين الألمان- لا يسلُكُ الطريقَ المباشر في إبرازها، وإنما جاء بها على طريقة المستشرقين الذين يُلْقُون الشُّبهات القاتلة في قلبِ الحقائق الدَّامِغة، إنه منهجٌ استشراقي[1] لم يستطِع (باول) التخلُّصَ مِن حبَائِله؛ ولذلك جاءَ كتابُه يحوي العديدَ مِن الشُّبُهات حولَ مصدرِ القرآن الكريم، وحول النبي محمد ﷺ، كما يحوي الحقائق التي ذكرناها أيضًا، ويكشف عن شخصيةٍ دينية قلقة، باحثةٍ عن الحقّ، مُذَبْذَبَةٍ بين ثقافة الكتاب المقدّس، وما يحويه مِن أساطير، والقرآنِ الكريم وما يُبهِرُه به من حقائق علمية وتاريخية ناصعة، ولعلّ هذا شأن كثير مِن علماء الدين المسيحي، وبخاصّة أتباع المذهب البروتستانتي الذي يُعطي قدرًا مِن التفكير العقلي لهؤلاء.

والكتاب الذي بين أيدينا (دروس قرآنية للمسيحيين) جعلَ بعضَ المفكِّرين الألمان يُصَنِّفُ مؤلِّفَه (باول) مع المؤمنين بالإسلام[2]، ويراه مِن أفضلِ ما يُمكن أن يقدِّمه باحث ألماني عن الإسلام في ألمانيا، ولعلّ هذا كان الدافع المباشر للدكتور/ السيد محمد الشاهد لترجمةِ هذا الكتاب من اللغة الألمانية إلى اللغة العربية، وكتابة مقدمة مطوَّلة للكتاب، إضافة إلى ما كتبه

(١) أشار إلى ذلك مترجم الكتاب الدكتور/ السيد الشاهد، راجع الحاشية رقم (١)، ص١٣٩، من كتاب (دروس قرآنية).

(٢) هكذا قال مراد هوفمان عن باول وكتابه، راجع: دروس قرآنية، ص٢٧، ٢٨.

المؤلِّف مِن مقدّمات لبيان محتواه الذي تَضَمَّن سبعة فصول؛ بدأها المؤلِّف بفصل (أمام القرآن)، وختمها بفضل (خاتم الأنبياء).

والكتاب على ما فيه من حقائق علمية تحَدَّثَ بها عالِمٌ مِن أبرز علماء الدين المسيحي البروتستانتي في ألمانيا، فيه أيضًا العديد مِن الشُّبُهات، ومن هنا كانت هذه الرؤية النقدية التي حاولتُ مِن خلالها تقويمَ أبرز ما في الكتاب من قضايا، والردّ على أهمّ ما قاله مؤلِّفه من شبهات، وذلك من خلال منهجٍ تحليليٍّ يتناولُ الكتابَ شكلًا ومضمونًا، فقد أعدتُ تقسيم الكتاب إلى تمهيد وثلاثة مباحث، تناولتُ في التمهيد: التعريف بالكتاب، ومؤلَّفه، ومترجمه، ومحتواه، ونقد ما جاء في مقدّمته.

وجعلتُ **المبحث الأول**: عن القرآن الكريم، وتحدثتُ فيه عن قضيتين مهمّتين، هما: ترتيب القرآن، ومصدره الإلهي، وقد طال الحديث في هذا المبحث؛ لمحاولة تتبّعِ الشبهات التي أثارها (باول) في كتابه حول هاتين القضيتين.

وفي **المبحث الثاني**: تناولتُ فيه بالنقد فصولًا أربعة مِن فصول الكتاب، وهي: (الرسل، النبي، عيسى، خاتم الأنبياء)، وجمعتُ هذه الفصول الأربعة معًا لاتحاد موضوعها.

المبحث الثالث: وتناولتُ فيه بالنقد فصلين من الكتاب، وهما: (الحجر الأسود، وحكم العالم وخالقه). ثم الخاتمة التي جعلتها عمّا توصّل إليه الباحث من نتائج، وما ينبغي أن يكون عليه الكتاب.

واللهَ سبحانه أسألُ الصواب في القول، والإخلاص في العمل، وعلى الله قصد السبيل.

تمهيد:

عنوان الكتاب: (دروس قرآنية للمسيحيين: مدخل إلى كتاب المسلمين المقدّس)، ترجمة وتعليق الدكتور/ السيد محمد الشاهد، والكتاب من طبع دار قباء - مصر - الطبعة الأولى - ٢٠٠١م، وعدد صفحاته (١٥٢) من الحجم المتوسّط، والكتاب له طبعات أخرى سابقة باللغة الألمانية يتّضح ذلك من خلال الإشارات الواردة في بعض صفحاته[١].

المؤلّف: هو القسّ الألماني البروفيسور (باول شفارتزيناو) ألماني الجنسية، أحد علماء الدِّين المسيحي المعاصرين البروتستانتي المذهب[٢]، وُلِدَ في ١٩ سبتمبر ١٩٢٣م[٣]، بعد انتهائه من دراسته الجامعية عُيِّن راعيًا روحيًّا للطلبة حتى عام ١٩٧٠م[٤]، عمل أستاذًا للعقيدة الإنجيلية (البروتستانتية) ومناهج التدريس مع تخصّص رئيس العلوم الدينية بجامعة (دورتموند) بألمانيا، وظلّ يعمل ما بين الجامعة والكنيسة حتى عام ١٩٧٠م، وفي سنّ

---

(١) كتلك الواردة في: ص٢٧، والمنسوبة لـ(مراد هوفمان) والمؤرخة بـ(١/ ١٢/ ١٩٨٣م)، وكذلك المقدمة الثانية التي كتبها المؤلِّف نفسُه وذيّلها بقوله: (دورتموند في يوليو ١٩٨٩م).

(٢) دروس قرآنية، ص١٤.

(٣) دروس قرآنية، ص١٨.

(٤) دروس قرآنية، ص١٩.

الخمسين أصبح أستاذ كرسي الثيولوجيا وتاريخ الأديان في كلية التربية في منطقة الرور (شمال غرب ألمانيا)، بلغ سنّ التقاعد عام ١٩٩٧م[١].

ومترجم الكتاب هو الأستاذ الدكتور/ السيد محمد الشاهد، أستاذ الدراسات الإسلامية بقسم اللغة الألمانية - كلية اللغات - جامعة الأزهر، وقد التقى بالمؤلِّف مرارًا في أثناء سفره لألمانيا[٢].

محتوى الكتاب: يضم بين دفَّتَيْه الفصول التالية:

الفصل الأول: وعنوانه (أمام القرآن)، بدأ فيه (باول) كتابه بوقفة أمام القرآن ومحاولة فهم رسالته الأساسية.

(١) وله عديد من المؤلَّفات، منها: مشكلة المسيح عند مارتن بوبر: دراسة في تاريخ الأديان اليهودية، انتهى من تأليفه عام ١٩٥١م، ولم يُنشر إلا عام ١٩٩٧م، ولم يذكر السبب. وعلم النفس الديني والاجتماعي، والديانات العالمية الكبرى، والفكر التاريخي لـ(روز ينشتوك هويسي)، وكتب الفيدا والكتاب المقدس والقرآن، ونماذج أساسية للتجربة الدينية، والبوذية والمسيحية، وغيرها، وأسَّسَ جمعية الديانات العالمية في مدينة (كولن بغرب ألمانيا)، وأصدر من خلالها مجلة (ديانات في حوار) بإشرافه وآخرين، وهي مجلد ضخم يصدر كلّ عامَيْن، وتضم أبحاثًا علمية متخصّصة حول مسألة الحوار بين اليهودية والنصرانية والإسلام، صدر منها ستة أعداد، آخرها تحت عنوان: (إرهاصات أمل في مجتمع كوني). راجع: دروس قرآنية، ص١٨، ١٩.

(٢) دروس قرآنية، ص١٤.

والفصل الثاني: جعله تحت عنوان (الحَجَر الأسود)، وفسّر المؤلِّف الحَجَر الأسود تفسيرًا رمزيًّا.

والفصل الثالث: سمَّاه المؤلِّف: (النبيّ)، هكذا دون تحديد، وتحدَّث عن شخصية الرسول محمد بن عبد الله ﷺ.

والفصل الرابع: وسَمَهُ المؤلِّف بـ(حكم العالم وخالقه)، تحدَّث عن مفهوم الألوهية بصفة عامة، ولنا تعقيب على هذه التسمية.

والفصل الخامس: جعله تحت عنوان: (الرسل)، تحدّث عن الرسل جميعًا، واستخرَجَ مِن القرآن ما يتّفق وما يختلف مع التصوّرات الموجودة في الكتاب المقدّس حول هذا الموضوع.

والفصل السادس: سمَّاه (عيسى)، ويأتي حديثه عن عيسى عليه السلام معتمدًا على ما جاء في القرآن الكريم.

والفصل السابع: عَنْوَن له بـ(خاتم الأنبياء)، وجعله عن خاتم الأنبياء محمد ﷺ، مؤكِّدًا صِدْقَ نُبُوَّتِهِ وأصالة رسالته، وأنَّه خاتم الأنبياء[1].

(١) دروس قرآنية، ص١٧، ١٨.

الرؤية النقدية لمقدمات الكتاب:

إنَّ أوَّل ما يلفِتُ النظرَ في هذه المقدّمات هو عنوان الكتاب، الموسوم بـ«دروس قرآنية للمسيحيين؛ مدخل لدراسة كتاب المسلمين المقدّس» الذي جمع فيه المؤلِّف بين متناقِضَيْن؛ فالمسيحيون لا يؤمنون بالقرآن، فكيف يقبلون منه دروسًا؟! وربما قَبِلَ المسلمون دروسًا مِن الإنجيل؛ لأنهم يؤمنون به إجمالًا، ويرون وقوع التحريف في كثير من تفاصيله، وعلى هذا الاعتبار فقد يكون من المقبول أن يقول في العنوان: (دروس إنجيلية للمسلمين)، وسيَقبل المسلمون هذا على أنه لون مِن ألوان التبشير الذي يمارسه المبشِّرون والمُنَصِّرُون في كثير مِن بقاع العالم. أمَّا العنوان بهذه الصورة التي وضعها المؤلِّف فيدُلُّ على الحرص الشديد على جذبِ انتباه المسلمين، ولفتِ أنظار المسيحيين، ولا شكّ أنه نجح في جذب انتباه هؤلاء وأولئك.

وفي رأيي أنَّ المؤلِّف كان يقصد بالتسمية الأولى للكتاب: (علوم قرآنية للمسيحيين) -قبل تعديلها- (ما ينبغي أن يعلمه المسيحيون عن القرآن) أو (ما لا يعلمه المسيحيون عن القرآن)، والأَوْلى -في رأيي- أن يكون اسم الكتاب: (مدخل لدراسة كتاب المسلمين المقدّس) فقط، وهذا اجتهاد منّي يُمْلِيه محتوى الكتاب؛ لأنه على الرغم مِن كثرة رجوع المؤلِّف إلى القرآن، لم يعتمد فيما قاله من آراء مهمّة على القرآن، ولا على الفهم الإسلامي الصحيح للقرآن، وإنما اعتمد في ذلك على آراء كثير من المستشرقين الألمان وغيرهم.

وسنرى ذلك كثيرًا في صفحات البحث، بل وفي قليل من الأحيان تبدو معرفة المؤلِّف باللغة العربية والثقافة الإسلامية قاصرة، وربما أدَّى ذلك إلى التفسير غير الصحيح لآيات القرآن الكريم، بل والاستشهاد بها في غير ما ترمي إليه، كما سنرى ذلك تفصيلًا.

وفي المقدّمة الأولى (مقدّمة المؤلِّف للترجمة العربية) كشف المؤلِّف عن بعض أهداف الكتاب فقال: «ولأنني كتبتُ الدروس القرآنية بدايةً للقرّاءِ المسيحيين فقد ضَمَّنْتُه الرجاء الذي طالبتُ به إخواني في الدين المسيحي، وبصفة خاصّة الكنيسة المسيحية، ويتضمّن هذا الطلب الاعتراف بالنبيّ محمد، واعتباره رسولًا حقيقيًّا مرسَلًا ضمن رسل الله الأنبياء، وأنه جاء للمسيحيين أيضًا برسالةِ هداية»[1].

ماذا يقصد المؤلِّف بطلب الاعتراف المسيحي بنبوّة محمد ﷺ؟ إنّ هذا الطلب لا يعني -عندنا نحن المسلمين- إلا شيئًا واحدًا هو الإيمان برسالة الإسلام جملةً وتفصيلًا، والاعتراف بما أصاب الديانات السابقة كاليهودية والمسيحية من تحريف وتبديل وتغيير في كتبها، وأنّ القرآن هو المهيمن على كتبِ هذه الديانات، وما جاء فيه بشأنها هو القول الصدق، والحُكْم الفصل. أمّا إذا كان المؤلِّف يقصد برجائه هذا أن تعترف الفرقة المسيحية التي ينتمي إليها

(١) دروس قرآنية، ص٢١.

بنبوّة محمد ﷺ كنبيٍّ مِن الأنبياء المذكورين في العهد القديم فما أغنى محمدًا ودينَه عن هذا الاعتراف! وماذا أفاد اعتراف المشركين بصِدْق محمد ﷺ؟ هل منعهم ذلك من حربه والكيد له؟ هيهات[1]!

ولعلّ ثقافة المؤلِّف الدينية المسيحية كانت سببًا في قوله: «إنّ القرآن لم يكن فقط بالنسبة للمسلمين، بل وأيضًا بالنسبة لأهل الكتاب؛ كتابًا نقديًّا يكشف لُبَّ الإسلام الأصيل»، هذه العبارة تحتاج إلى إضافة لتستقيم مع الفهم الإسلامي للقرآن، فعبارة «كتابًا نقديًّا» دونما تحديد مصدره تجعل ذهن القارئ ينصرف إلى اعتبار القرآن كسائر الكتب البشرية الناقدة لسواها، والحقيقة أنّ القرآن كتابٌ إلهي لا دخل للبشر فيه من قريب أو بعيد، ثم إنه يقدِّم منهجًا إلهيًّا للبشر كافّة؛ لِيُقَوِّمَ به سلوكَهم في الأرض بما يتّفق مع مراده سبحانه؛ ولذا لو استبدل المؤلِّف بعبارته هذه قوله: (بل وأيضًا بالنسبة لأهل الكتاب يعدّ كتابًا إلهيًّا ناقدًا للكتب السابقة)، لربما استقام المعنى الذي قصد إليه.

---

(١) وإذا كان المؤلِّف يرى أن رسالة محمد ﷺ رسالة هداية للمسيحيين، فهل يعني هذا -في رأيه- أن المسيحيين الآن على ضلال في دينهم، وأنه يجب عليهم أن يرجعوا عن هذا الضلال إلى الحقّ في الإسلام؟ وبماذا يؤيّد المؤلِّف صِدْق دعواه هذه وهو نفسه لا يزال مسيحيًّا يؤمن بهذا الضلال، ويراه حقًّا؟ أليس في ذلك تناقض غريب؟ وإذا كان المؤلِّف صادقًا في دعواه هذه -ونتمنى ذلك- فإنه إن ظلَّ مصرًّا على عقيدته المسيحية، فهذا منه جحود بما يعتقد صدقه، وهو بذلك يكون كمن تحدّث عنهم القرآن، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ولكن من الإنصاف أن نَذْكُرَ ما أحسن فيه المؤلِّف؛ فبعد مناقشته لمسألةٍ محورية تخصّ الوحي الإلهي، وكيفية نزوله على رسول الله ﷺ يردّ على المستشرق (كار جوستاف يونج) الذي يرى: «أنّ الانطباع بأنّ اللاوعي لدى النبي محمد كان هو مصدر كلام الله الذي تضمّنه القرآن، بمعنى أن مصدر الوحي إلهيًّا خارجًا عن ذواتنا، بل هو في أعماق النفس (الذّات)، فيعقب المؤلِّف على ذلك بقوله: «إلا أنّ هذا الفهم خاطئ بالنسبة لمعنى الصورة الأوّلية للاوعي الجمعي»[(١)].

وقد أحسن المؤلِّف في ردّ هذا الفهم وتخطئته، وقرّر بعد ردّه قائلًا: «إنّ مصدر الوحي القرآني الذي تلقّاه محمد لم يكن باطنه، ولم يكن اللاوعي الجمعي التي يشترك فيها النبيّ مع كلّ البشر، بل هو المَلَك والرُّوح الذي جاء به من العالم الروحاني: عالم الوحي، حيث يكون الله هو المصدر الأول للوحي»[(٢)].

وسيناقش هذا القول في أكثر من موضع من كتابه، وسنعرض لهذه المسألة التي أثارها كثير من المستشرقين من أمثال (يونج) في حينها.

---

(١) دروس قرآنية، ص٢١.

(٢) دروس قرآنية، ص٢٢، ٢٥.

كما أحسن المؤلِّف أيضًا عندما أشار إلى علاقة القرآن بما قبله مِن ديانات يهودية، ويهودية مسيحية، فقال: «كانت هناك عقائد يهودية، ويهودية مسيحية قد أشار القرآن إليها، ذكَرها مِن أجل أن يُكْمِلَ ويثبت ويصحّح ما كان موجودًا من قبل»، وقال: «نحن لا نريد الإكثار مِن الأمثلة على أنّ القول بأنّ كلّ الديانات ترجع إلى نموذج أوّلي واحد قد صحّحه الوحي القرآني في مرحلة إلهية جديدة (الوحي الجديد/ القرآن). أمّا في القرآن فقد انسحب ذلك على كلّ البشر... إنّ الوحي لا يهدم طبيعة النفس، بل يضعها في مكانها الصحيح الذي خُلِقَتْ من أجله»[(١)].

ونقل المؤلِّف وجهات النظر المتعارضة حول كتابه في المقدّمة الثانية، فقد هاجمت وجهة النظر المسيحية الكتاب، وقال (ميلد نيبرجر): «قبل كلّ شيء يسبب هذا الكتاب شعورًا بعدم الارتياح عند المسلمين أنفسِهم فيما يخصّ فهمهم للقرآن... فماذا يفيدنا -نحن المسيحيين- أن نتعرّف على (مدخل للقرآن) -يقصد كتاب باول- يتعارض مع فهم المسلمين؟»[(٢)].

وكانت كلمة (مراد هوفمان) المسلم الألماني في تعقيبه على هذا الكتاب قد وَضَعَتْهُ في مكانه الصحيح عندما قال: «يعدّ هذا المدخل -كتاب باول-

(١) دروس قرآنية، ص٢٣.

(٢) دروس قرآنية، ص٢٤، ٢٥.

للقرآن وللإسلام أيضًا -ببساطة- أفضل ما يمكن أن يحدثَ لنصرة دين الله في ألمانيا خلال الفترة الحالية»[1].

فإذا انتقلنا إلى مقدّمة المترجم للكتاب نرى أنه سَلَّط الضوءَ كثيرًا على ما تميّز به الكتاب مما يُرْضِي القارئ المسلم، ولم يفعل ذلك مع سلبيات الكتاب مما يتعارض مع العقائد والفكر الإسلامي، حتى إنّ تعليقاته في الحاشية جاءت مُجملة لا تتناسب مع ما أثاره مؤلِّف الكتاب من قضايا وشبهات ضخمة حول الإسلام بصفة عامة، والقرآن الكريم بصفة خاصّة، ومن ذلك على سبيل المثال: قوله: «البروفيسور باول هو أحد أبرز علماء الدِّين المسيحي البروتستانتي المعاصرين، يتميّز بجرأة علمية نادرة، قد لا يُدانيه فيها أحد من المفكرين المعاصرين»[2].

وقد يكون باول هكذا في نظر أستاذنا الدكتور الشاهد، شريطة ألا يؤثّر ذلك على ما ورد في الكتاب من مادة علمية، لكنّي رأيتُ هذا الإعجاب ينعكس على ما ورد في الكتاب من مادة علمية، ومثال ذلك: في حديثه عمّا تناوله المؤلِّف في الفصل الثاني، يقول: «يفسّر -باول- الحجرَ الأسودَ تفسيرًا رمزيًّا لأقصى درجة، إلا أنه منطقي ويقبله العقل»، ولم يذكر المترجم دليلًا واحدًا -لا في مقدمته،

(١) دروس قرآنية، ص٢٧.

(٢) دروس قرآنية، ص٢٧.

ولا في الفصل الثاني كلّه، ولا في الحواشي التي ذكرها- على منطقية هذا التفسير أو عقلانيته، وسوف نناقش المؤلِّف فيما قاله عن الحجر الأسود في موضعه[(١)].

ويعقِّب المترجِم على عرض المؤلِّف لمادة الفصل الثالث بقوله: «أورد المؤلِّف ترجمة رائعة لملخّص من صحيفة المدينة التي أملاها الرسول ﷺ في المدينة، أخذه عن سيرة ابن إسحاق... إلخ»، ثم يقول: «وهذا ما يميّز المنهج العلمي الدقيق للمؤلِّف، حيث يرجع إلى المراجع العربية، ولا يعتمد في بحثه على ما كتبه المستشرقون، وكان مرجعه الأساسي في هذا الكتاب هو القرآن الكريم، وكُتب التفسير الإسلامية القديمة والحديثة»[(٢)].

وهذا القول -من الأستاذ المترجم- يتناقض مع ما قاله في كثير من حواشيه، وعلى سبيل المثال لا الحصر: قوله في الحاشية رقم (١): «اتَّبَعَ المؤلِّف منهج كثير من المستشرقين والمنصِّرين في عرض أفكاره بطريقة تجذب انتباه قرّائه...»، وفي حاشية رقم (٧٧) قال الأستاذ المترجم ما نصّه: «يلاحظ هنا وفي بعض المواضع الأخرى أنّ المؤلِّف يستخدم تعبيرات المستشرقين واللاهوتيين المسيحيين واليهود... إلخ»، فكيف يتم للمؤلِّف ذلك دون الرجوع إلى مصادرهم؟!

(١) دروس قرآنية، ص١٤.

(٢) راجع المبحث الثالث من هذا البحث.

ثانيًا: ملاحظات على تقسيم المؤلف لفصول كتابه:

ربما يكون من المقبول أن يُقَسِّمَ المؤلِّف كتابَه كما تُمليه عليه ثقافته الدينية أو العلمية، أو موضوع الكتاب، وعلى النظرة المتخصّصة أن تحدّد أقسام الكتاب كما تُمليه الفكرة التي يتناولها هذا الكتاب أو ذاك حتى تترابط أجزاؤُه، وتتعانق أفكاره فيكون وحدة موضوعية واحدة، وكنتُ أنتظر من أستاذنا الدكتور المترجِم أن يُشير إلى ذلك في مقدّمته أو حتى في حواشيه؛ فقد جعل المؤلِّف الفصلَ الثالث عن النبي[1] هكذا دون أيّ إشارة في الأصل أو في الحاشية تُحَدِّد مَن المقصود بهذا النبي، أهو عيسى أم محمد عليهما السلام؟

والفصل الخامس عن الرسل عليهم السلام، والفصل السادس عن عيسى عليه السلام، والفصل السابع عن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، وأوّل ما يلفِتُ النظرَ في ذلك أنّ هذه الفصول الثلاثة تتحدّث عن موضوع واحد وهو (الرسل عليهم السلام)، فما الداعي إلى هذه التقاسيم المفتعَلة إذا كان الموضوع واحدًا؟ والأَوْلى أن تكون كلّها تحت عنوان واحد هو الرسل عليهم السلام، ويتحدّث المؤلِّف تحته عمَّن يشاء منهم؛ ولذلك أرى أن تكون فصول الكتاب أربعة، لا سبعة، وتكون على هذا النحو:

الفصل الأول: أمام القرآن.

(١) راجع دروس قرآنية، ص٦٥.

والفصل الثاني: حكم العالم وخالقه. (هكذا سمّاه المؤلِّف، ولنا عليه تعقيب عندما نتناوله بالتفصيل).

والفصل الثالث: الرسل عليهم السلام.

والفصل الرابع: حول الحجر الأسود.

هذه مجرّد رؤى اجتهادية تمليها العناوين التي اختارها المؤلِّف لفصول الكتاب، وقد يختلف معي في ذلك أو يتّفق. وسأجعل -إن شاء الله- هذه الفصول الأربعة تحت ثلاثة مباحث، هي:

المبحث الأول: أمام القرآن.

والمبحث الثاني: الرسل عليهم السلام.

والمبحث الثالث: حكم العالم وخالقه، والحجر الأسود.

ومِن وجهةِ نظري، وقبل أن نبدأ في المبحث الأول: إنّ القارئ لهذا الكتاب سواءٌ كان مسيحيًّا أو مسلمًا في حاجة ماسَّة للإجابة عن بعض التساؤلات التي يثيرها محتواه، ونجملها في ثلاثة:

أولًا: ما موقف القرآن مِن مسألة حوار الأديان التي جعلها المؤلِّف هدفًا من أهدافه في هذا الكتاب، وفي غيره مما ألَّفه من الكتب؟

والجواب: إنّ القرآن الكريم قد فَجَّرَ ينابيعَ الحوار مع جميع الخصوم، سواءٌ كانوا مخالفين له في الإيمان بالله، أو في النبوّات، أو في الكتب السماوية، والقارئ للقرآن يجد مِن الأدلة على ذلك ما لا يقع تحت حصر، وكذلك كتب السيرة النبوية وما فيها مِن حوار بين النبي ﷺ والمشركين(١).

وثانيًا: ما أصول الفِرقة البروتستانتية التي يؤمن بها المؤلِّف، والتي أثَّرت ولا شك في فِكره؟

والجواب: البروتستانتية فِرْقة تختلف عن بقية الفرق النصرانية؛ لأنهم احتجُّوا على الكنيسة الغربية الكاثوليكية باسم الإنجيل والعقل، وتسمّى كنيستهم بالبروتستانتية، حيث يعترضون على كلّ أمر يخالف الكتاب وخلاص أنفسهم، وتسمّى بالإنجيلية أيضًا، حيث يتّبعون الإنجيل دون سواه، ويعتقدون أنَّ الكلَّ قادرٌ على فهمه، فالكلُّ متساوون، ومسؤولون أمامه(٢).

---

(١) ومن الأدلة القرآنية على ذلك من القرآن قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]. وراجع السيرة النبوية لابن هشام: (١/ ٣٩١، ٣٩٢)، (٢/ ٥٨٣، ٥٨٤ ٢٦)، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي= د.ت.

(٢) وهي حركة تحوّلت من حركة إصلاحية داخل الكنيسة إلى حركة عقائدية مستقلّة ومناهضة لها، ومن أبرز مؤسسيها: (مارتن لوثر: ١٤٨٣م- ١٥٤٦م في ألمانيا= الروخ هولدريخ زوينجلي: ١٤٨٤م- =

وثالثًا: هل يمكن تصنيف المؤلِّف ضمن المستشرقين المُبَشِّرِين للديانة المسيحية في ديار المسلمين من خلال هذا الكتاب؟

والجواب: لا بد أن نتوقّف ولا نقول إلا بما تحت أيدينا مِن أدلة؛ وذلك لأنَّ هدفنا من النقد ليس المسائل الشخصية، وإنما القضايا العلمية، فمن الأدلة على حُسْن نِيّة المؤلِّف ما ذكره في كثير من المواضع من إنصافٍ للقرآن، وللنبي محمد ﷺ، وما ردَّ به على كثير من المفتريات، وما تجرَّأ فيه بالحديث عن نبي الله عيسى عليه السلام، ومناقشته لمسألة الصَّلْب، حتى إنَّ الدكتور (مراد هوفمان)

=

١٥٣١م= جون كالفن: ١٥٠٩م- ١٥٦٤م)، وانقسمت الحركة البروتستانتية إلى كنائس عديدة، وطوائف مختلفة، ومن أهمها: الكنيسة اللوثرية، الكنائس المصلحة، والكنائس الأسقفية، وغيرها، وتُخالف هذه الكنائسُ سائرَ الكنائس الأخرى فيما يلي: الخضوع لنصوص الكتاب المقدّس وحده، وعلى نصوصه تُقاس أيّ أوامر صادرة عن الكنيسة، وعدد أسفار العهد القديم التي يؤمنون بها ستة وستون سفرًا، وأمّا باقي الأسفار، وعددها: أربعة عشر فتسميها (الأبو كريفا) أي: غير الصحيحة، فلا تعترف بها، لا يؤمن أتباع هذه الكنائس بعصمة البابا أو رجال الدين، وتهاجم بيع صكوك الغفران، والقداسة لا تنحصر في شخص بذاته، ويؤمن أتباعها بأنّ شرط المجيء الثاني للمسيح هو إقامة دولة إسرائيل في فلسطين، وترتبط الجذور الفكرية والعقائدية في هذه الكنائس بالديانات الوثنية. راجع: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، (٣/ ٢٩٢)، دار الشروق- مصر- الطبعة الأولى- ١٤١٤هـ. ومحاضرات في النصرانية للإمام محمد أبو زهرة، ص٢٠٠- ٢٢٦، دار الفكر العربي- الطبعة الخامسة- ١٣٩٧هـ. وإظهار الحق لرحمة الله الهندي، ص١٨٣، تحقيق: عمر الدسوقي، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء- ليبيا، ١٣٨٤هـ.

المفكّر الألماني المسلم يَعتبر (باول) مؤلفَ هذا الكتاب في عداد المسلمين، واستدلّ بآرائهِ في كتابه: (الإسلام في الألفية الثالثة)[1].

وإن كان المؤلِّف ذاته والمترجم لم يُصرِّحَا بذلك مطلقًا في أيٍّ مِن صفحات الكتاب؛ ولذلك فالأَوْلى أن نجعل المؤلِّف (باول شفارتزيناو) في مصافِّ الباحثين عن الحقيقة، فهو باحث قد أصاب في كثير من أقواله وأفكاره في هذا الكتاب، وأخطأ في بعضها، وخلط الصواب بالخطأ في بعضه الآخر، والمعصوم مَن عصمه الله.

(١) راجع: الإسلام في الألفية الثالثة؛ ديانة في صعود، للدكتور/ مراد هوفمان، ترجمة: عادل المعلم، مكتبية العبيكان- الرياض- السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

المبحث الأول: أمام القرآن:

سنجعل الفصل الأول الذي سمَّاه المؤلِّف (أمام القرآن) مادة هذا المبحث، ثم نضيف إليه ما يتعلّق بالقرآن الكريم من القضايا التي أثارها المؤلِّف في بقية فصول الكتاب؛ منعًا للتكرار، ويمكننا تقسيم مجمل هذه القضايا سواءٌ كانت في الفصل الأول، أو في سائر فصول الكتاب إلى:

- ترتيب القرآن، وتناسق موضوعاته، ودعوى التَّكْرار فيه.
- مصدر القرآن.

أولًا: ترتيب القرآن، وتناسق موضوعاته، ودعوى التَّكْرار فيه:

في بدية هذا الفصل يصدم المؤلِّفُ القارئَ المسلم صدمة شديدة بقوله عن القرآن الكريم: «فقد يبدو للمرء في الوهلة الأولى -عندما يقرأ القرآن- أنه يقف أمام كمٍّ هائلٍ غير متناسق من العبارات والصور والقصص هو أقرب إلى الخليط العشوائي منه إلى الكتاب بالمعنى الصحيح. نجد عروضًا شِعْرية على أعلى درجات الجمال، يتبعها مباشرة عرض لأحكام شرعية. كلّ هذا يثير في الإنسان إحساسًا بالتِّيه، يُضاف إلى ذلك تكرار يتخلّل الكتاب كلَّه، وقصص غير كاملة، ولا يجدها القارئ مكتملة في أيّ موضع آخر من الكتاب، فتبدو وكأنها اقتباسات يفترض معرفة القارئ بها مسبقًا. إنه لَمِن المستحيل بالنسبة إلى

القارئ المبتدئ أن يتمكّن مِن أن يكون لنفسه فهمًا متكاملًا، بل غاية ما يمكن أن يصل إليه القارئ هو ترتيب شكلي لهذه القصص والسور...إلخ»[(١)].

لكن يمكننا أن نتجاوز عن هذه الصدمة التي يصدم بها القارئ المسلم إذا أخذنا برؤية الأستاذ المترجم، التي يرى فيها أن المؤلِّف حاول في افتتاحية هذا الفصل أن يسير على منهج المستشرقين والمنصِّرين الذين يستدرجون القارئ المسلم بمدح القرآن والإسلام في بداية كتبهم، ثم ينتهون بالهجوم عليهما، وبصورة عكسية حاول (باول) أن يستدرج القارئَ المسيحيَّ بالطعن في القرآن، فبدأ الفصل الأول بهذه الصدمة العنيفة للقارئ المسلم، والاسترضاء للقارئ المسيحي[(٢)]!

وهذا الأسلوب في الكتابة يكشف عن مدى المَكْر في أساليب الاستشراق والتنصير التي لا تتورَّع عن دَسِّ السمِّ الزّعاف فيما تسوقه مِن كتابات عن الإسلام والقرآن، كما يكشف أيضًا عن سقوط لدعاوى المنهج العلمي المحايد... وتتبيَّن لنا في كلام (باول) مسألةٌ مهمّة في عدم فهم القرآن الكريم فهمًا صحيحًا، وبخاصة في حديثه عن قصص الأنبياء؛ ولذلك يقول: «إنّ الأسلوب الخطابي المتضمّن في كلمات الله غير المحدّدة في القرآن تأخذ عند

---

(١) دروس قرآنية، ص٣٣.

(٢) راجع كلام المترجم في دروس قرآنية، ص١٣٩، حاشية رقم: (١).

القارئ أحيانًا صفة نهر من الحديث يتدفّق بلا نهاية، فيغمره الحنين إلى العودة إلى الأسلوب الروائي الذي اعتاده في الكتاب المقدّس، قد يؤدي هذا الإحساس بالبعض إلى أن يتوقّف عن قراءة القرآن، وأن يتركه جانبًا»[1].

وما لم يقله المؤلِّف (باول): إنّ هذا القارئ -الذي اعتاد هذا الأسلوب في الكتاب المقدّس- سيكون لديه انطباع سيّئ عن القرآن، وسيُصْدِر عنه أحكامًا وأوصافًا خاطئة، وبخاصّة إذا كان من الباحثين المتخصّصين كما نرى عند كثير من المستشرقين، بل كما نرى عند (باول) نفسه الذي يتناسى هذا الكلام الجيد أحيانًا، ويأخذ بأقوالهم. ولعلّ السبب في ذلك -كما يتضح من كلام (باول)- ما اعتاده قارئ الكتاب المقدّس من الأسلوب الروائي البشري الذي يقوم على الخيال والغرابة وإثارة التناقضات الذهنية التي يحار القارئ في الإجابة عليها، وهذا ما جعل (موريس بوكاي) يقول عن قرّاء الأناجيل: «إنَّ في الأناجيل نصوصًا يراها القرّاء مبهمَة غير مفهومة، بل حتى متناقضة وعبثية أو فاضحة، وإنّ قراءة النصوص الكاملة للأناجيل قادرة على إثارة اضطراب عميق لدى المسيحيين...؛ ولذلك نصح (الأب روجي) بتدخل الكنيسة لمساعدة القرّاء

(١) دروس قرآنية، ص٣٣.

الراغبين في قراءة الأناجيل للتغلّب على حيرتهم قائلًا: كثير من المسيحيين يحتاجون إلى تعلّم قراءة الأناجيل»[1].

وهكذا يتكشّف لنا جانب من الأزمة الثقافية التي يعانيها هؤلاء الباحثون المتخصّصون من أمثال (باول) وغيره من المستشرقين عندما يتناولون القرآن الكريم بالبحث والدرس، إنّ لديهم تصورًا مسبقًا عن الكتاب الديني -أو عن الكتاب الإلهي بشكل عام- إنه لا بد أن يكون كالكتاب المقدّس الذي عَهِدُوه وتحيَّرُوا في محتواه، وهاموا في تفاصيله، وهذا ولا شك تصوُّر خاطئ تَنَبَّه له (باول) أحيانًا، وأشار إلى أثره ههنا، وإدراك (باول) لهذه الحقيقة بعض الشيء جعله يحضّ الباحث في القرآن على الاستمرار في قراءته حتى وإن لاقى ما ذكره من الصعوبات التي أشار إليها آنفًا، فيقول: «أمّا من يستمر في قراءة القرآن على الرغم من ذلك مع النظر إليه نظرة كلية شاملة، ويترك نفسه تتعرّض لمؤثراته بشكلٍ دائم سوف[2] يغمره تغيّر داخلي هائل يعمّ نظرته للكتاب، كما يعمّ كلّ من يقرؤه أو يسمعه، أو بمعنى أدقّ يسمعه أو يراه. سوف يرى الإنسان عندها كما لو أنّ كلّ المقاطع الصغيرة والكبيرة، وكذلك القصص والصور التي يتكوّن

(١) القرآن والتوراة والإنجيل في ضوء العلم الحديث، لموريس بوكاي، ص٥٤٤، دار الفتح للإعلام العربي، مصر، ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م.

(٢) كذا، والصواب: فسوف؛ لأنه جواب (أمّا).

منها القرآن اجتمعت في جوهرة عظيمة، صُنِعَتْ بمنتهى الدقّة تضيء من داخلها، وترسل أشعّتها في كلّ اتجاه، وتدور في كلّ اتجاه، وتدور حول نفسها إلى ما لا نهاية. في كلّ مسطح صغير من هذه الجوهرة تضيء صورة، صورة أصلية متفردة في نوعها يتجدّد ظهورها مع كلّ حركة دوران في ثوب جديد خلال كلّ مسطح صغير لهذه الجوهرة»[1].

ولكي يؤكّد باول هذا التصوّر الذي وضعه في تشبيه بلاغي؛ فإنه شرع يتحدّث عن قصة نوح في القرآن مستعرضًا للآيات التي تحدَّثَتْ عن هذه القصة، مبينًا أنَّ تفرّقها في القرآن الكريم ليس تكرارًا، وإنما كلّ مقطع يكمل الآخر؛ لتكتمل الصورة لقصة نوح عليه السلام، وقد أشار إلى أن قصة نوح قد وردت في (٢٨) موضعًا، ذكر منها ما ورد في سور: (القمر، نوح، سورة ق، الشعراء، الصافات، المؤمنون، هود).

ويعقِّب قائلًا: «وكلّ ما ينطبق على نوح ينطبق على إبراهيم، ولوط وموسى، وهود، وصالح، وشعيب. لقد حاول (هاينريش شباير) في كتابه: (قصص الكتاب المقدّس في القرآن) أن يعرض نسقًا مترابطًا لِمَا وردَ متفرّقًا في ثنايا القرآن. إنَّ عملًا كهذا له قيمته، ويمكن به الإسهام في إظهار العلاقات بين المعلومات المتفرّقة، إلا أنَّ الإنسان يعتريه الإحساس بأنّ الحيوية المميزة

(١) دروس قرآنية، ص٣٣، ٣٤.

-لهذا القصص- الموجودة في القرآن قد تحطّمت بسبب هذا العمل، والتي تستمد وجودها في كلّ آية مِن خلال وجودها في مكانها الأصلي، وكذلك يختفي الأثر البرَّاق الذي يصدر عن القرآن الكريم. حقًّا فكأنَّ النور الأصيل الأول الذي تضمّنته صور العالم والتاريخ في القرآن الكريم ينكسر»[(١)].

ثم يقول: «والشيء الذي يبدو للعقل المرتّب وكأنه عشوائي يصبح نظامًا خفيًّا مضيئًا للحقيقة»[(٢)].

إنّ باول هنا يكشف عن شخصية ناقدة لما يقرؤه من بحوث تتعلّق بالقرآن الكريم، فعلي الرغم مِن مدحه لعمل (شباير) في كتابه (قصص القرآن...) بَيَّن أنّ هذا الكتاب قد اقتلع الآيات القرآنية من مكانها، ووضعها في سياقات أخرى أدَّتْ إلى فقدانها ما تحويه من تأثيرات إلهية نورانية هي مِن خصائص القرآن الكريم، وينتهي بعد هذا النقد إلى بيان أنّ القرآن له نظامه الخفيّ الذي يقوم على الحقائق المضيئة التي قد لا يدركها الباحث المتأثّر بالكتاب المقدّس منذ الوهلة الأولى.

والقرآن الذي قال عنه منزله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، هو الذي جعل المستشرق الألماني (والفجانج

(١) دروس قرآنية، ص٣٤، ٣٥.

(٢) دروس قرآنية، ص٣٦.

لانجرميش) يقول عنه: «إنّ القرآن الكريم أكبرُ الكتب التي تُقْرَأ في العالم، وهو أيسرها حفظًا، وأشدّها أثرًا في الحياة اليومية لمن يُومِنُ به. فليس طويلًا كالعهد القديم، وهو مكتوب بأسلوب رفيع، ومِن مزاياه أن القلوبَ تخشعُ عند سماعه، وتزداد إيمانًا وسُمُوًّا... ولا يعترف القرآن بأنّ عيسى هو ابن الله، أو أنه قُتِلَ مصلوبًا... ويتسم القرآن بطابع علمي وعملي فيما يتعلق بالمعاملات بين الناس، وهو في ذلك يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وهذا التوفيق بين عبادة الإله الواحد، وبين التعاليم العملية؛ جعل القرآن كتابًا فريدًا ووحدة متماسكة»[(١)].

فهذا القول مِن (والفجانج لانجرميش) قد نفذ به إلى جانب مهمّ مِن الإعجاز القرآني البلاغي والتشريعي، وتبدو الأزمة الثقافية التي أشرتُ إليها لدى المستشرقين في المقارنة بين القرآن والكتاب المقدّس الذي اعتادوا على نسقه الروائي، كما أشار (باول).

وبعد هذا العرض لتصور (باول) عن ترتيب القرآن ونَظْمِه واتِّساقِه، وما قاله (والفجانج لانجرميش)، نزيد الأمر وضوحًا من خلال الرؤية الإسلامية

(١) وراجع بحث: (دراسات في فهم المستشرقين للإسلام) د/ توفيق الواعي، ص١٦٠، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد: ١٨، السنة الثامنة، جامعة الكويت، ١٤١٢هـ.

لعلماء المسلمين لهذه المسألة، ولعلّ أبرز الذين تناولوها بالبيان هما: الأستاذ الشيخ/ محمد أبو زهرة، والدكتور/ عبد الله دراز.

أمّا الشيخ أبو زهرة فقد حدّد صفات الكتاب الإلهي الذي يمكن أن يكون حجر الزاوية لِدِين من الأديان، فقال: «ما يجب أن يكون في الكتاب الديني من صفات ليكون حُجّة هي: صدق الرسول الذي جاء به، وعدم تناقض الكتاب في موضوعاته، أن يدَّعِي الرسولُ أنّ هذا الكتاب أُوحِيَ إليه، وأن تكون نسبة هذا الكتاب إلى الرسول نسبة ثابتة»[(١)]، وقد توافرتْ كلّ هذه الشروط في القرآن الكريم.

أمّا الدكتور/ عبد الله دراز فقد حدّد قوله في مسألة الترابط بين آيات القرآن وسوره، وأنّ له نظامًا خفيًّا قد لا يعلمه كثير من الباحثين، فقال: «أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجَّمة يحسبها الجاهل أضغاثًا مِن المعاني حُشِيَتْ حشوًا، وأوزاعًا من المباني جُمِعَتْ عفوًا، فإذا هي -لو تدبّرتَ- بِنْيَةٌ متماسكةٌ قد بُنِيَتْ مِن المقاصد الكلية على أُسُسٍ وأُصول تَقْصر أو تَطُول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرتين وأفنية في بنيان واحد قد وُضِعَ رسمُهُ مرّة واحدة، لا تحسّ فيه بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق.

---

(١) بتصرّف من (محاضرات في النصرانية) للشيخ محمد أبو زهرة، ص٩١.

كلّ ذلك بغير تكلّف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسِها، وإنما هو حسن السياقة، ولطف التمهيد في مطلع كلّ غرضٍ ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصلَ متصلًا، والمختلف مؤتلفًا»[(١)].

يتسم هذا القول من الدكتور/ دراز بالنفاذ إلى أعماق ما يثيره أعداء القرآن مِن شُبهات، وما قد يترتب عليها من القول بأنّ القرآن لا يربطه نظام داخلي محكم؛ ولذلك يعرض الدكتور لهذه الشُّبْهة، ويردُّ عليها ردًّا بيِّنًا واضحًا لا يحتاج بعده إلى تعقيب. وبعد هذه الأدلة العلمية العديدة على الترابط الداخلي للقرآن لا بد أن نشير إلى عدّة أمور مهمّة:

أولًا: إنّ هذه الشبهة -عدم التناسق الداخلي للقرآن- ليست جديدة، بل إنها مما أثاره المبطِلون من الكافرين وقتَ نزولِهِ، وحكى القرآن عنهم ذلك، فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨]، فقول الكافرين هنا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: أصحاب أباطيل لا رابط فيها ولا ضابط لها[(٢)].

(١) النبأ العظيم، ص١٩٥، للدكتور/ محمد عبد الله دراز، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م.

(٢) فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية في التفسير، للإمام الشوكاني (٤/ ٣٣٠)، دار الوفاء - مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

ثانيًا: لا بد لنا -نحن الباحثين المسلمين- أن ندرك أنّ هناك أسبابًا عائقة عن فهم غير المسلمين للقرآن، وهذا ما نصّ عليه الأستاذ/ محمد رشيد رضا في التماس العذر لِمَا يقع مِن هؤلاء مِن شُبهات ومطاعن ضدّ القرآن، وذكَر مِن هذه العوائق: الجهل ببلاغة القرآن، وقصور ترجمات القرآن وضعفها، والأسلوب القرآني المخالف لجميع أساليب الكلام العربي وغيره، وعدم وجود دولة قائمة بالإسلام تطبّقه ليراه الناس واقعًا[1].

ثالثًا: إنّ سوء فهم الآخرين للقرآن يجعلنا ندرك شيئًا من أسرار قوله تعالى في الأمر بتدبّر القرآن: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، أي: أفلا يتدبّر هؤلاء مواعظ القرآن ويتفكّرون في حُجَجه؟ بل هذه القلوب مغلقة، لا يصل إليها شيء مِن هذا القرآن، فلا تتدبّر مواعظ الله وعِبَرَه[2].

وفي معرض حديث (باول) عن ترتيب سور القرآن وتناسق موضوعاته، يُشير إلى بعض المفاهيم الخاطئة عن أسلوب القرآن من الناحية اللغوية

(١) انظر: الوحي المحمدي، لمحمد رشيد رضا، ص١١- ١٥، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- مصر، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٤م.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (١/ ١٩٤)، تحقيق: عبد القادر حسونة، دار الفكر، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

والبلاغية، فيقول: «يشيع بين الناس القول بأن السّور المتأخّرة أقلّ قوّة في التعبير، حيث تنساب اللغة في عمومية حتى تقترب من الأسلوب الوعظي، وعلى العكس من ذلك فإنّ السور المتقدّمة من حيث النزول تحمل تدفقات لوحي ملتهب مليء بالصور البديعة من خلال عظمة لغوية»[1].

ويردّ (باول) على هذه المفاهيم الخاطئة بقوله: «إنّنا إذا أخذنا القرآن ككلّ، فسوف نجد أننا لا نرغب في غياب أيّ صفة من الصفات التي ذُكِرَتْ، وسوف نجد أنّ الأسلوب الهادئ الذي تتميّز به السور المتأخّرة يفتح لنا آفاقًا جديدة...»[2].

إنّ (باول) هنا يشير إلى التنوّع في الأسلوب اللغوي في القرآن بين السور التي نزلتْ في مكة في أول الوحي، والسور التي نزلتْ في المدينة، ولا بد هنا أن نزيد الأمر وضوحًا في بيان التنوّع في الأسلوب بين المكي والمدني من سور القرآن، ولكي ندرك بعض أسرار هذا التنوّع علينا أن نراجع صفات العقلية التي خاطبها القرآن في مكة أول مرة، «كان القرشيّون الذين بُعِثَ فيهم محمد ﷺ يقولون: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]، ويقولون: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

(١) دروس قرآنية، ص٣٧.

(٢) دروس قرآنية، ص٣٧.

وهم أَلِدَّاء في الخصومة، أهل مُمَارَاة ولجاجة في القول، وفصاحة وبيان؛ فلا بد لهذه العقول الجامدة، والقلوب الصلدة أن يهزَّها قول عنيف؛ ولذلك كان في الوحي المكيِّ قوارعُ زاجرة، وشُهُب منذرة، وحجج قاطعة تحطِّم وثنيَّتَهم في العقيدة؛ ولذا نجد في القرآن المكي ألفاظًا شديدة القرع على المسامع، فـ(كَلّا) الرادعة الزاجرة، والصاخّة، والقارعة، والغاشية، والواقعة، وألفاظ الهجاء في فواتح السور، كلّ ذلك في السور المكية، فلمّا تكوَّنَتْ الجماعة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وامتُحِنَتْ في عقيدتها فصبرت؛ نزل القرآنُ في المدينة طويل المقاطع، يتناول أحكام الإسلام وحدوده، ويفصِّل أصول التشريع، ويضع قواعد المجتمع.

وهذا التنوّع في أسلوب القرآن -إضافةً إلى كونه من المسلّمات العقلية التي تتّصل بتربية الأمم والترقّي بها، وبتثبيت فؤاد رسول الله ﷺ، وبيان التحدي والإعجاز للقرآن، وتيسير حِفْظه وفهمه على أُمّة أُمِّيَّة لا عهد لها بالكتابة- فإنّ فيه قيمة تشريعية عُليَا، تتمثّل في التدرج التشريعي الذي يرتفع بالإنسان المسلم رويدًا رويدًا إلى القمة الإيمانية السامقة[1].

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد الزرقاني، (١/ ١٧٦- ١٩٧)، تحقيق: أحمد عليّ، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ. وقد ردَّ في هذه الصفحات عمّا ورد من شبهات حول المكي والمدني، وتغير الأسلوب القرآني بينهما. ومباحث في علوم القرآن، لمناع القطان، ص٤٤، مكتبة وهبة، القاهرة- الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ. وقديمًا أجابت السيدة عائشة رضي الله عنها عن هذه الشبهة، فقالت: «إنما نزل أول =

ولذلك فإنّ تنويع الخطاب بين المكي والمدني في القرآن إنما هو معجزة بارزة لكلّ مَنْ يتذوّق بلاغة القرآن، وينعم النظر في تشريعاته، وتلك صفة من الصفات التي لا يتمتّع بها المستشرقون غالبًا.

وبعد هذا الفهم الصحيح لتنوّع الأسلوب القرآني، يعرض (باول) لموضوعات سورة البقرة، ويقارن بين سجود إبليس لآدم، وبين سجوده للمسيح، ويرى أنّ إبليس سجد للمسيح وهو في صورته القبلية، أي: في أثناء وجوده بالقوّة لا بالفعل، عندما قرّر المسيح القبلي أن يكون بشرًا!»[1].

=

ما نزل منه سورة من المفصّل فيها ذِكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزلَ الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: (لا تشربوا الخمر)، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: (لا تزنوا)، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا». انظر: الإتقان، للسيوطي، (١/ ٤١)، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ. والحديث أخرجه البخاري عن إبراهيم بن موسى، كتاب فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن، (٣/ ٢٢٧). راجع: صحيح البخاري بحاشية السندي، مطبعة الحلبي- مصر، د.ت. وراجع حول هذه المسألة: النبأ العظيم، ص١٣٨- ١٩٩، ثم ذكر نموذجًا لترابط القرآن من سورة البقرة، من: ٢٠٤- ٢٦١، وحقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشكّكين، ص٧٤- ١٢٠، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وأمّا قضية التكرار في القرآن فقد قُتِلَت بحثًا، وفيها على سبيل المثال: كتاب التكرار؛ أسرار وجوده وبلاغته في القرآن، للأستاذ حفني داود، مطبعة حليم، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٤م.

(١) دروس قرآنية، ص٣٩، وبعد حديثه عن الآيات الواردة في سورة البقرة عن إبراهيم عليه السلام نجد باول ينتهي إلى قول في العقيدة مغرق في التصوّف؛ إِذْ يرى «لأنّ الله محيط بكلّ شيء حَسْبَما يرِد مرارًا وتَكرارًا في القرآن الكريم، وما يتفق معه الاتجاه الذي تضمّنته الكلمة الصوفية الواردة في الديوان

=

ومن الملاحَظ أن باول هنا يؤمن أنّ المسيح له طبيعتان: طبيعة بشرية، وأخرى إلهية، ولن نناقشه في ذلك الآن؛ لأنه سيتراجع عن هذه الرؤية في حديثه عن الرُّسُل.

ويصل باول إلى الحديث عن سورة الكهف، فيبدأ الحديث عنها بتساؤل يقول فيه: «هل يمكن أن تكون مجرّد صدفة أن تقع سورة الكهف في وسط القرآن تقريبًا؟ إنها تضَمَّنُ قصة أصحاب الكهف السبعة»[(١)]، ويشير باول إلى ما في سورة الكهف من قصص الفِتْية، وصاحب الجنتين، وقصة موسى وصاحبه، وقصة ذي القرنين، وبعد هذه الإشارات ينقل باول عن كتاب (يونج)، (الميلاد من جديد) تفسيرًا نفسيًّا لمعنى الكهف من الناحية النفسية، والعلاقة التي تربط بين ما في الكهف من عُمْق وظلام، وبين ما في النفس الإنسانية من ذلك أيضًا... وما أشار إليه من العلاقة بين قصة أهل الكهف في القرآن وبين قصة «النائمون السبعة»، كما ينقل عن (يونج) ما تشير إليه مسألة بحث موسى عليه السلام عن العلم، أو الحقيقة -حَسَب قوله-. وأمّا قصة موسى مع الخضر، وما فعله الخضر من

=

الشرقي الغربي للشاعر جوته: (هكذا أخيرًا منك تيقنتُ .. أنك في كلّ شيء قد تجلّيتَ)، وهذا قول فِرقة من الفرق الصوفية التي قالت بالحلول والاتحاد، وأنّ الله حلَّ في كلّ شيء حتى صار يتبدّى في أيّ شيء». راجع: دروس قرآنية، ص٤٠.

(١) دروس قرآنية، ص٤٠.

تعليم لموسى فهو في رأي يونج: «رمز إلى أن الذاتية تريد الحفاظ على نفسها تجاه ما ينتج عن تصادمها مع القوى النفسية الكلية»[(١)].

إنّ (باول) في نقله عن (يونج) كثيرًا من النظريات النفسية التحليلية لآيات القرآن، أو حتى لقصص الكتاب المقدّس لا يعطي لأبناء الدين المسيحي دروسًا قرآنية كما يزعم، وإنما يشتطّ بمعنى الآيات القرآنية عمّا يفهمه المسلمون منها، وما ينبغي أن يفهمه غير المسلمين منها أيضًا، إنّ قصة أهل الكهف لها في التصوّر الإسلامي أهدافٌ تختلف تمامًا عما سعى باول لبيانه للمسيحيين من خلال تحليل (يونج) النفسي[(٢)].

ولذلك فإنّه من الإنصاف أن ننظر إلى كلّ ما نقله (باول) عن (يونج) في هذا الكتاب -وهو كثير- في ضوء ما قرّره في مقدّمة الكتاب، حيث قال واصفًا لفكر (يونج) بصورة مجملة: «وينبغي هنا التنبيه إلى محدودية في تصوّرات (يونج)، والتي يشارك فيها علم الفلسفة، وعلم النفس الغربيَّيْن. إنّ النفس عند (يونج) تبتلع الروح، وهنا تكمن أعمق المشكلات التي لم تقع فيها تصوّرات يونج فقط، بل وكلّ النظريات الغربية»[(٣)].

(١) دروس قرآنية، ص٤٢.

(٢) ولسورة الكهف أهداف عقائدية ودينية تختلف تمامًا عما ادَّعاه يونج. راجع: في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٥٦)، دار الشروق، مصر، الطبعة الثانية عشرة، ١٦٠٦هـ، وتحدّث عن بعض أهداف سورة الكهف.

(٣) دروس قرآنية، ص٢٢.

ولذلك فإنّ ما أثاره (يونج) من تصوّرات متعمّقة في التحليل النفسي لا نراها مما تحمله آيات سورة الكهف، والقرآن الكريم كان واضحًا في حديثه عن النّفْس الإنسانية؛ فلم يَحْوِ ألغازًا، ولا تحليلات نفسية غامضة، بل كانت كلماته تتفاعل مع الفِطَر السليمة، وتلتقي مع العقول المستقيمة، كما تحدَّث عن ذلك الفيلسوف الألماني (ليسنج) قائلًا: «إنني أشعر أنّ كلّ شيء فطري وطبيعي في الديانة موجود في القرآن، وأعتقد أني أفهم وأقتنع بسرعة بالقرآن»[(١)].

وأمّا التشابه بين قصة أهل الكهف وقصة «النائمون السبعة» الواردة في الكتاب المقدّس فإنّ (باول) أو (يونج) لم يَذكُرَا وجه التشابه بين القرآن والكتاب المقدّس، فإن كانَا يقصدان التشابه في العدد فإنّ القرآن لم يحدّد عددًا، وإنما قال في شأنهم: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، فكما قال المفسِّرون: إنّ اليهود قالوا في بيان عدد فتية الكهف إنهم ثلاثة، وقال النصارى -وهم وفد نجران- إنّ عددهم أربعة، وقال بعض

---

(١) الغرب والإسلام، لرجب البنا، ص١٩٥، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، الطبعة الأولى- ٢٠٠٢م. وكذلك قال الدكتور/ محمد عثمان نجاتي في كتابه (القرآن وعلم النفس)، راجع: ص١٧، دار الشروق، الطبعة الرابعة، ١٤٠٩هـ.

المسلمين إن عددهم خمسة، فبيَّن القرآن الكريم أنّ هذا كلَّه ضربٌ من الخيال، والصحيح: قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾، وكان ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا من هذا القليل، فقال: هم سبعة وثامنهم كلبهم(١).

وتحدَّث عن العشاء المقدّس كما ورد في سورة المائدة، فقال: «المثال الآخر الذي أُريد ذكره هو تصوير القرآن للعشاء المقدّس: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ

---

(١) راجع: تفسير البيضاوي (٣/ ٤٨٣)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٩/ ٣٢٥)، دار الريان للتراث، مصر، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ (بتصرف). وأمّا قوله: هل كان وجود سورة الكهف في وسط القرآن مجرّد صدفة؟ فالردّ على قوله «صدفة»: إنّ سورة الكهف لم يكن وجودها في وسط القرآن مجرّد صدفة مطلقًا، وإنما هي حسَب الترتيب الإلهي لسور القرآن الكريم، وعلماء المسلمين يرون ذلك ويقولون به، يرى فريق من العلماء بأنّ الترتيب الإلهي لسور القرآن الكريم كان باجتهاد الصحابة، ويرى جمهورهم أن ترتيب السور كان من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وقد ناقش العلماء هذه المسألة بإفاضة يمكن مراجعتها في: البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١/ ٢٠١)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٠٨هـ، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (١/ ٦٢)، ومناهل العرفان، للزرقاني (١/ ٢٩٧)، ومباحث في علوم القرآن، لمناع القطان، ص١٢٣، ١٢٤. والسؤال عن ذلك لم يكن ليفيد عند قوم لا يرون فرقًا في أوامر الله سواءٌ ما كان منها في أول القرآن أو في آخره، وباول نفسه لا يقبل عقلًا أن يكون ما جاء في أول إنجيل متّى يتميز بميزةٍ ما على ما جاء بآخره إذا كان المصدر إلهيًّا واحدًا.

مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥].

إنّ المائدة التي أُنزِلَتْ لا تعني فقط غذاء روحيًّا، بل أيضًا غذاء للجسد، مائدة تنزل من السماء في يوم عيد واحتفال بالسلام على الأرض، مائدة معجزة حقيقية -عِبرة للإنسان- متكاملة، تتناغم فيها السماء والأرض، هدية للإنسان الحسِّي والمعنوي، وليس فقط الروحاني، تكملة شاملة للعهد القديم»[١].

بعض النصارى يُنكرون نزول مائدة من السماء، ويقولون: إنّ الإنجيل لم يرِد فيه ذلك[٢]، ولكننا نعجب في أن (باول) يذكر العشاء المقدّس، ويستشهد عليه بآيات سورة المائدة، وهو لا يزال على نصرانيته! والحقيقة أنّ ما ذكره (باول) هو الصحيح، فقد ورد في إنجيل يوحنّا (٦/ ٣٠- ٣١)، أنّ الحواريين طلبوا آية من السماء؛ فقالوا له: فأيّة آية تصنع؛ لنرى ونؤمن بك؟ ماذا تعمل؟ آباؤنا أكلوا المَنَّ في البرِّية. كما هو مكتوب: أنه «أعطاهم خبزًا من السماء ليأكلوا» (يوحنّا: ٦: ٣٠- ٣١)، إنهم طلبوا مائدة من السماء؛ لأنهم قالوا:

(١) دروس قرآنية، ص٤٣.

(٢) راجع: محاضرات في النصرانية، ص٢٢٤، وانظر تعقيبه على ذلك، ورفض الكنائس لما قالت به الفِرقة البروتستانتية.

«آباؤنا أكلوا المَنَّ في البرِّية» بعد قولهم: «فأيّة آية تصنع لنرى ونؤمن بك؟»، واستدلّوا على أكلِ آبائهم للمنّ... وقد سمّاه داود عليه السلام مائدة في قوله عنهم: «قالوا: هل يقدر الله أن يرتّب مائدة في البرِّية؟» مزمور (٧٨: ١٩)»[١].

وباول ينتسب إلى الفِرقة البروتستانتية، ولها مذهب في مسألة العشاء الرباني؛ إِذْ يعتقد أتباعها «أنه تذكار بفداء المسيح للخطيئة التي ارتكبها آدم، وتحمّلت الخليقة مِن بعدُ وزرها، وتذكار لمجيئه ليُدِين الناس، فهو تذكار للماضي والمستقبل، كما جاء في بعض الرسائل، وهم ينكرون أن يتحوّل الخبز إلى جسد المسيح والخَمْر إلى دمه...»[٢].

ويتناول باول الإعجازَ اللغوي في القرآن فيمرّ على ذلك مرورًا سريعًا ليؤكّد أمرًا مهمًّا هو «يعتبر القرآن بصفته التعبير اللغوي عن الله هو المعجزة الحقيقية في الدّين الإسلامي»[٣]، ويعقد مقارنة بين الكتاب المقدّس والقرآن في هذا الصّدد، فيقول: «بالنسبة للقرآن يحدث للإنسان الانطباع مرارًا وتكرارًا، وكأنّ الأحداق التاريخية التي نعرفها نحن في الكتاب المقدّس أو مصادر أخرى تدور في القرآن على مستوى عالٍ من النماذج الأولية، فمن الناحية الأدبية يظهر

(١) راجع: حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشكّكين، ص٥١١.
(٢) راجع: محاضرات في النصرانية، ص٢٢٤.
(٣) دروس قرآنية، ص٤٤.

ذلك في أنّ الأخبار الواردة في الكتاب المقدّس، والمليئة بالمعلومات تتجه نحو أسلوب الأساطير، إنها تترك عند القارئ انطباعًا بأنها عبارة عن خلاصة مستخلصة من مادة أوّلية غير نقية»[1].

ويستمر في عقد هذه المقارنة من ناحية المحتوى، فيقول: «وبمقارنة الكتاب المقدّس بالقرآن، يبدو الكتاب المقدّس متوسّعًا بشكلٍ كبيرٍ، وعلى العكس من ذلك فإنّ القرآن محدّد ومتنوّع الموضوعات»، وإلى هذا الحد فالكلام صحيح، إلا أنه يستمر قائلًا: «ويمكن أن يعتبر القرآن تفصيلًا للكتاب المقدّس»[2].

وهذه عبارة خاطئة من جهتين؛ الأولى: إنها تتناقض مع قوله: إنّ القرآن محدّد ومتنوّع الموضوعات. ومن ناحية ثانية: إنّ المقارنة بين الكتاب المقدسّ والقرآن في أيّ موضوع ورد فيهما نجد تفصيلات دقيقة في الكتاب المقدّس لا وجود لها في القرآن، وبخاصّة في الأعداد وذِكْر أسماء الأماكن، وذِكْر أسماء الشعوب والعائلات... إلخ، وذلك بِغَضّ النظر عن صحة ما ورد فيه أو تحريفه أو خطئه. وكانت هذه التفصيلات مصدرًا للإسرائيليات في كتب التفسير القرآني؛ حيث رغب المفسِّرون المسلمون -لما في القرآن من قصص مجمَل-

(١) دروس قرآنية، ص٤٦.

(٢) دروس قرآنية، ص٤٦.

في ذكر التفاصيل الواردة في العهد القديم، فأصيبتْ كتب التفسير القديمة على وجه الخصوص بكثير من جوانب الضعف(١).

ولكن (باول) يعترف مع ذلك بأنّ القرآن الكريم هو الكتاب الحقيقي الذي بشّرَتْ به الكتب السابقة، فيقول: «إنّ المسلم عندما يشعر أنه يملك الكتاب الحقيقي وهو القرآن الذي بشّرَت به الكتب السماوية السابقة عليه فهو مُحِقٌّ في هذا الإحساس»(٢).

(١) راجع: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، المقدمة للدكتور/ محمد أبو شهبة، مجمع البحوث الإسلامية، السنة الرابعة عشرة الكتاب الرابع، القاهرة، ١٩٨٤م.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات، ص٤٦، ويستشهد باول استشهادًا خاطئًا بآية سورة الرعد، وقد وقع هذا منه في قليل من المواضع التي أشار إليها المترجم. راجع: ص٤٦.

ثانيًا: مصدر القرآن الكريم:

إذا كان (باول) قد أكَّد في فصل (أمام القرآن) -موضع حديثنا- حقيقة مهمّة، هي: «لا بد أن نكون على يقين بأنّ كلّ ما في القرآن هو كلام الله»[(١)]، وختم هذا الفصل بقوله: «يُذكر في سورة الأعراف أنّ محمدًا أمِّيّ. إلا أنه لا يهمُّنا هنا بالدرجة الأولى ما إذا كان المقصود بهذه الصِّفَة المعنى الحرفي لكلمة أمِّي أم لا. الأهمّ هو أن هذا يعني أن محمدًا قد تلقّى النموذج الأول الأصلي للوحي، وكان مستعدًّا لتلقِّيه، ولم يُضِفْ إلى ما تلقّاه أيَّ شيء ناتج عن تعلّم أو تأمّل عقلي ديني مهما كانت درجة معارفه أو تأمّلاته السابقة على تلقِّيه القرآن. لقد جاء النبي ﷺ بصفته مبلّغًا فقط بالقرآن إلى الأرض، أي: كان موصِّلًا فقط لرسالة السماء القرآن إلى الأرض»[(٢)]، إلا أنّ (باول) عاد وتبنّى وجهة نظر المستشرقين في الحديث عن مصدر القرآن، فقال: «ربما لن نتمكن من معرفة الإجابة الكاملة اليقينية عن السؤال حول المصادر التي حصل منها محمدٌ على معارفه الدينية، وما هي المؤثّرات التي تأثّر بها آنذاك. فمن المحتمل أن يكون قد حصل على بعض المعلومات عن اليهودية والمسيحية أثناء رحلاته التجارية إلى سوريا، والتي لم تنحصر في معلومات أرثوذكسية من المسيحيين السوريين.

(١) دروس قرآنية، ص٤٣.

(٢) دروس قرآنية، ص٤٨.

وينقل عن رودي بارت القول بأنّ اليهودية كان لها تأثير مهم في الجزيرة العربية، وفي مكة كان ورقة بن نوفل ابن عم خديجة مسيحيًّا، وأنّ الكعبة كان بها ثلاثمائة وستون صنمًا، وهي مقدّسات مسيحية»[١].

والنتيجة التي يستنتجها (باول) من هذه النقول ما يلي: «أيًّا كان الأمر فإنه لا بد من وجود تأثيرات مسيحية غنوصية في فكر محمد. كان (بيلتز) على حقّ حينما أشار على ملامح قريبة في أسلوب القرآن لشخصيات وأنبياء الكتاب المقدس وُجِدَتْ فيما يُسَمَّى بالكتابات الغنوصية المنسوبة إلى شيت، والتي عرفناها عن طريق آثار نجع حمادي. لقد ذكرتُ آدمَ وشيت وموسى كمعلّمين وحاملين للعلم الذي يؤدّي للنجاة»[٢].

ثم يقول: «ألا تجد الآية المحيّرة رقم (٤٢) من سورة فاطر، والتي جاء فيها أن المكيّين قد أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم سيكونون أهدى من الأمم الأخرى إذا جاءهم نذير. تفسيرها في التصوّر والانتظار لرسول لم يأتِ بعد، كان موجودًا في المحيط الثقافي اليهودي -المسيحي- الغنوصي في مكة قبل محمد؟»[٣].

---

(١) دروس قرآنية، ص٤٨.

(٢) دروس قرآنية، فصل (النبي)، ص٦٧. ويشير باول إلى مصدر هذا الكلام بأنه بارت: محمد والقرآن، ص١٠، وبيلتز: أساطير القرآن، ص١٠٠.

(٣) دروس قرآنية، ص٦٨.

وبعد سطور ينقل باول ما يفيد أنّ القرآن مصدره الكُهَّان، وأنه يتطابق مع قول العرَّافين، فيذكر قول بارت: «وكان الكاهن يستخدم في أقواله نوعًا من النثر بمعنى جُمَل، أو أجزاء من جُمَلٍ تنتهي بقافية، إلا أنها تختلف عن الشِّعْر الموزون، ويتطابق ذلك تمامًا مع ما أُوحي في السور الأولى من القرآن. ويذهب التطابق الشكلي بين عبارات الكهنة والسور الأولى من القرآن إلى حدٍّ أبعد من ذلك، فيأتي الخطاب في صيغة المخاطب؛ لأنّ المتكلّم هو الكاهن الروحي (الجن) بينما يكون الكاهن هو المخاطب. وكان الكاهن يؤكّد أقواله بصيغ مميزة من القَسَم، فيُقسِم مثلًا بالسماء والأرض والنجوم والنور والظلام وبأنواع معينة من الحيوانات والنباتات، وتشبه هذه الأنواع الغامضة مِن القَسَمِ ما بدأ به محمد بعض السور الأولى، وقد لاحظ المعاصرون لمحمد هذا التطابق بين العبارات المستخدمة في الحالتين؛ ولذلك اتهموه بالكهنوتية»[1].

(١) دروس قرآنية، ص٧١. يرى المترجم أن المؤلِّف يتبنّى وجهة نظر المستشرقين، وأنه سيردّ على ذلك في الفصول التالية لهذا الفصل. راجع حاشية رقم (٦٠)، ويعتذر المترجم عن باول في قوله: «قال محمد: إنما أمرتُ أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء» ص١٠١ بقوله: «هذه الصياغة توحي بأن المؤلف يقصد أن الرسول ﷺ هو مؤلّف القرآن، إلا أنّ أساليب التعبير في اللغة الألمانية لا تحتم ذلك»، والعهدة هنا على المترجم، فلعلّه قد راجعه في ذلك في بعض اللقاءات التي تمّت بينهما كما ذكر في الكتاب، وقد اعتذر المترجم عن المؤلِّف في قوله: «لقد كان عدد أتباع النبي يزداد في صمت، وكان يلتقي بهم في شِعْب خارج مكة، ليقيموا الصلاة التي أوجبها جبريل على محمد» ص٧٦. قال المترجم: «إن المؤلف يقصد الصلاة التي بلّغها جبريل لمحمد ﷺ» حاشية رقم (٦٧)، وإذا كان =

وربما حاول الأستاذ المترجم أن يخفّف من هذه الصدمات العنيفة التي يوجهها باول للقارئ المسلم؛ فاعتذر عنه في بعض حواشي الكتاب. ولكن متابعتنا لآراء المؤلِّف حول مصدر القرآن الكريم تجعلنا نتبيّن تذبذبه بين الحقّ الذي يراه في مصدر القرآن الكريم، وأنه من عند الله، وبين ما يردّده المنصِّرون والمستشرقون عن هذا المصدر، وهذه الرؤية تقوم على الأدلة التالية:

١- يرى المؤلِّف أنّ محمدًا قد أخذ تصوّره عن الرُّسل عن الغنوصية، فنراه يقول: «لا بد للمرء أن يتساءَل عمّا إذا كان محمد قد أخذ تصوّره عن الرُّسل عن الروايات الغنوصية التي كانت منتشرة آنذاك في مكة. إننا نجد روايات ذات بنية شبيهة في الغنوصية السيتيانية حول محنة آدم، وذلك ضِمْن ما

=

هذا الاستدراك سيفيد القارئ العربي المسلم، فهل سيفيد القارئ الألماني المسيحي أو العربي المسيحي؟ أشكّ في ذلك. إنّ باول يرى أن الوحي أُنزل على محمد ﷺ وهو نائم، ويقول في ذلك: «بعد طول سهر كان محمد يغطّ في النوم هذه الليلة، وكان كثيرًا ما يرى أحلامًا في نومه قبل أن يأتي الفجر إلا أنه الآن رأى بوضوح تام رسولًا يقف أمامه يحمل في يده لفافة تحتوي على كلمات مخطوطة، واقترب منه وناداه: اقرأ، فردّ محمد بخوف: ما أنا بقارئ، وكرّر ذلك، فردّد محمد أثناء نومه ما قاله المَلَك كلمة بكلمة، ثم ابتعد عنه المَلَك، وعندما استيقظ محمد من نومه أحسَّ وكأنّ هذه اللفافة المكتوبة قد أُنزلت في قلبه». دروس قرآنية، ص٧٢، ٧٣. والردّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ [الشورى:٥١]. راجع: في النبوات والسمعيات، ص٨٢، ٨٣، تأصيل ودحض شبهات، للدكتور/ رضا الدقيقي، مكتبة صالح، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

عرف من محتويات المكتبة الغنوصية التي اكتُشفت عام ١٩٤٥/ ١٩٤٦م في نجع حمادي... ولأنّ مثل هذه التصوّرات كانت معروفة في مكّة قبل محمد فإنّ ذلك سوف يلقي الضوء على آيات قرآنية ما وصفت ببساطة بأنها مجرد خطابة»[1].

٢- على الرغم من أن (باول) يأخذ على الكتاب المقدّس إساءته على نبي الله لوط، وينصف القرآن في هذا الصّدد، فيقول: «وعلى خلاف ما رُوي في الكتاب المقدّس عن لوط، فإنّ القرآن لا يرمي بظلال سيئة على شخصيته»، إلا أنه يعود فيرى: «أنّ هذه القصة قد أتت في القرآن من الكتاب المقدّس عبر آباء الكنيسة، ووصلت إلى كمالها في القرآن»، ثم يذكر أرقام السور والآيات التي ذُكِرَت فيها القصة، وتستمر رؤيته في أنّ القرآن يرجع مصدره إلى الكتاب المقدّس في حديثه عن قصة شُعيب أيضًا، فيقول: «ولعلّ لروايات الكتاب المقدس أثرًا غير مباشر في قصص القرآن، فأهل مدين... إلخ»[2].

٣- ويستمر في هذه الرؤية في حديثه عن قصة موسى أيضًا، إلا أنه يسجّل أنّ محمدًا قد جعل آيات موسى الواردة في القرآن تسعًا بدلًا من عشر؛ لأنه -حسب زعم باول-: «أمّا الآية العاشرة فقد أنكرها محمد واعتبرها أمرًا لا يليق

(١) دروس قرآنية، ص٩١.

(٢) دروس قرآنية، ص٩٤، ٩٥.

بالذّات الإلهية»، ويقول: «البقرة الحمراء التي ورد ذكرها في العهد القديم تصبح صفراء في القرآن»[1].

٤- وإذا كان المترجم قد اعتذر عن المؤلِّف في بعض المسائل التي حال ضعفُ المقدرة اللغوية عند المؤلِّف من الإصابة فيها، فإنّه يصعب الاعتذار عنه في قوله: «وتؤيّد بعض القرائن أنّ محمدًا ﷺ لم يعتقد بدايةً أن إسماعيل هو الذي كان على أبيه أن يضحّي به لله، بل ظهر الاعتقاد بشكلٍ تدريجي في مرحلة لاحقة، ففي سورة (الصافات الآيات ٩٩: ١١١) -يقصد من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١١١]- لم يَرِد ذكر اسم الابن الذي كاد أن يُذْبَح. أمّا الآيات التالية: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وما بعدها حيث يبشر إبراهيم بإسحاق يمكن أن تكون قد أُضِيفت في فترة لاحقة»[2]، فقوله: «قد أُضيفت» فيه غمز صريح لمصدر القرآن الكريم، حيث يوحي بأنّ محمدًا ﷺ، أو غيره قام بهذه الإضافة، كان ينبغي على المؤلِّف أن يعدّل العبارة إلى (أمّا الآيات التالية رقم [١١٢]، وما بعدها فإنها قد أُنزلت بعد ذلك حيث يبشّر إبراهيم بإسحاق).

---

(١) دروس قرآنية، ص٩٨، ٩٩، وص١٠٢، ١٠٣. ولم يعقب الأستاذ المترجم على ذلك بشيء.

(٢) دروس قرآنية، ص٩٨، ٩٩، وص١٠٢، ١٠٣. ولم يعقب الأستاذ المترجم على ذلك بشيء.

٥- يتحدّث عن قصة الغرانيق، ويرى أنّ القرآن لم يتضمّن في سُوَرِه الأولى عداءً للأصنام! فيقول: «لم تضمّن السور الأولى من القرآن حسَب تاريخ النزول عداءً واضحًا للأصنام، بل علّها كانت تضع الأصنام فقط في درجة الأبناء والبنات لله -تعالى الله عما يقولن علوًّا كبيرًا- وفي هذا الصّدد تخبرنا بعض الروايات أنّ محمدًا أضاف الدعاء القديم الذي كان يَذكره القرشيّون أثناء طوافهم بالكعبة إلى ما ذكر في سورة النجم، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ١٩- ٢١]، هكذا يمكننا القول بأن محمدًا أراد أن يُبْقِي على المكانة الخاصّة لبنات الله وشفعائه ربما لكي يبني على هذا الأساس نوعًا من الاتفاق مع وجهاء قريش، ثم لمّا رفض محمد فيما بعد هذا الحلّ الوسط بشكلٍ قاطع؛ جاءت الصياغة الأخيرة للآيات من سورة النجم كما يلي: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥﴾ [النجم: ٢٢- ٢٥]. لقد أصبح واضحًا لمحمد على ما يبدو في المرحلة الحرجة أنَّ أي تقديم أو تأخير لهذه الأصنام بالنسبة إلى الإله الحقيقي سوف يؤدّي في ذات الوقت إلى إبعاد الله عن التفاعل المباشر مع الواقع المعيش في هذا العالم»[(١)].

(١) دروس قرآنية، ص٩٠.

٦- «إنّ الأنبياء هم حملة العلم الصحيح، وإنهم يُنْقَذون مع أتباعهم من أية كارثة، وهذا تصوّر يرتبط بفكرة النبوّة في كلّ جيل، ولكلّ أمة يُبْعَثُ رسول؛ ولأنّ مثل هذه التصوّرات كانت معروفة في مكة قبل محمد، فإنّ ذلك سوف يُلقِي الضوء على آيات قرآنية كثيرًا ما وُصِفَتْ ببساطة بأنها مجرّد خطابة»[١].

وبعد عرض هذه الشُّبُهات حول مصدر القرآن فإننا نُجملها فيما يلي، ثم نردّ عليها بعون الله:

- إنَّ مصدر القرآن هو الأفكار الغنوصية، والديانة اليهودية والمسيحية التي كانت منتشرة بمكة قبل بعثته، أو الكتاب المقدّس، أو ورقة بن نوفل، فقد كان مسيحيًّا، أو الكهنة المنتشرون في مكة، أو جبريل عليه السلام، أو محمد نفسه؛ لأنه يضيف ويحذف كما يشاء، وأنه حاول أن يُوجِدَ حلًّا وسطًا في مسألة الأصنام، فكانت منه هذه المحاولة التوفيقية بين ما في القرآن مِن حملةٍ شديدة على الأصنام، وبين مدحها ببعض الآيات المذكورة في سورة النجم! كما نفهم من كلام باول. وإنّ في القرآن آيات ما هي خطابة.

قبل الإجابة على **الشبهة الأولى** التي يقول فيها (باول): إنّ القرآن مصدره اليهودية أو المسيحية، سواء كان ذلك عن طريق الكتاب المقدّس مباشرة، أو عن طريق الأفكار الغنوصية، لا بد أن نتساءل: ما الغنوصية؟ وهل نجد صدى

(١) دروس قرآنية، ص٩١.

مِن أفكارها في القرآن الكريم؟ وما صورة العلاقة بين محمد ﷺ واليهود والنصارى في مكة والمدينة؟ وهل كانت هذه العلاقة تسمح بتعلّم محمد للقرآن منهم؟

فالغنوصية التي يدَّعِي المستشرقون ويتابعهم (باول) أنّ محمدًا تأثّر بها وأخذ عنها القرآن: «مشتقة من الكلمة اليونانية (جنوصيص) ومعناها: علم، أو معرفة، أو حكمة، أو عرفان، وتستخدم الكلمة الأخيرة في المعجم العربي للإشارة للغنوصية، وهي حركة فلسفية، وتعاليم دينية متنافرة، أخذتْ شكلَ أنساق أسطورية جميلة في غاية التنوّع وعدم التجانس! انتشرت في الشرق الأدنى القديم في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد، ورغم عدم تجانس أساطيرها وتعاليمها وأفكارها، بل تنافرها فيمكن القول بأن الأنساق الغنوصية تدور في إطار الحلولية الكمونية، وتنطلق الحلولية الغنوصية عادة من رؤية أثينية ازدواجية صارمة ترى أنّ هناك إلهين وليس إلهًا واحدًا: إلهًا خفيًّا خيّرًا (إله العهد الجديد)، وإلهًا ظاهرًا شِرِّيرًا (إله العهد القديم)، والإله الظاهر هو الإله الصانع الذي خلق هذا العالم المادي»[١].

(١) راجع: الموسوعة اليهودية والصهيونية مادة (الغنوصية)، المجلد الثامن، تعريفات المفاهيم والمصطلحات الأساسية، للدكتور/ عبد الوهاب المسيري، بيت العرب للتوثيق العصري والنظم، والمعجم الفلسفي، لعبد المنعم خفاجي، مطبعة الدار الشرقية، مصر، الطبعة الأولى: ١٩٩٠م.

والسؤال -بعد هذا التعريف للغنوصية- أين نجد في القرآن ظلال هذا الفكر الغنوصي أو صداه؟ فهل نجد في القرآن أيَّ شبهة فكرية لاتخاذ أيِّ معبود غير الله؟

إنّ أيَّ قارئ للقرآن أو باحث فيه يرى بوضوح كيف هاجم القرآن الشركَ والمشركين، وكيف فنَّدَ -في سورة الأنعام، والأنبياء، والزمر- كلَّ دعاواهم الباطلة، وبيَّن جهالاتهم العقلية، وسذاجتهم الفكرية! إنّ باول ومَن تابعهم يفتقرون بشدّة إلى فهم عميق لِمَا تضمّنه القرآن وبخاصّة ما نزل في مكة منه مِن معالجةٍ لكلّ ما يتعلّق بالعقيدة التوحيدية، فإذا قعدت بهم ثقافتهم الإسلامية فليقرؤوا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]، وقوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]، وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وقوله: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٧٤]، وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ

لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

فهل نجد في هذه الآيات البيِّنات ظلالًا لآلهة الشر وآلهة الخير التي تقوم عليها الأفكار الغنوصية؟

إنّ القول بالتشابه بين القرآن والأفكار الغنوصية ساقط لا أساس له، بل لا نجد دليلًا واحدًا يمكن أن يتّخذه الطاعنون تكأة في القول به(١).

وأمّا القول بأنّ محمدًا ﷺ أخذ هذا القرآن عن اليهود والنصارى فهاك تصويرًا للعلاقة بين محمد ﷺ وأصحاب هاتين الديانتين تسجّلها باحثة مسيحية - والحقّ ما شهدت به الأعداء- تقول (كارين أرمسترونج): «لا يسع الإنسان إلا أن يُدْهَشَ للعبقرية الروحية للنبي محمد الذي لم تكن له أيّة صلة تقريبًا باليهود أو بالنصارى الممارسين لدينهم، وكانت معرفته بتلك الكتب السماوية الأولى حتمًا معرفة بالغة الضآلة، ومع ذلك فقد نجح في النفاذ إلى قلب الخبرة بدين التوحيد»(٢).

(١) ولمن يريد تأكيد ذلك فليرجع إلى موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، للدكتور/ عبد الوهاب المسيري، مادة الغنوصية وأفكارها ونشأتها التاريخية وعلاقتها باليهودية.

(٢) سيرة النبي محمد، لكارين أرمسترونج، ص١٥٢، ١٥٣، الطبعة الثانية: ١٩٩٨م، كتاب مجلة سطور، ترجمة: د. فاطمة نصر، د. محمد عناني، ولا شك أنها تعني بقولها: «بالغة الضآلة» أي: معرفة قليلة لا ينتج عنها وحي.

ولا شك أن هذا ليس عن عبقرية محمد، كما أنها لم تكن نقلًا عن اليهود أو النصارى، وإنما هي من وحي الله تعالى، بل تؤكّد هذه الباحثة أنّ العرب كلهم لم يكن لهم من العلاقات الثقافية باليهود والنصارى ما مِن شأنه أن يُنشِئَ تأثيرًا بين الكتب السماوية والقرآن، فتقول: «في الواقع إنّ عرب الحجاز لم يكن لهم سوى صِلَات قليلة بالمسيحيين، وكانوا لا يكادون يعرفون شيئًا عن المسيحية، ولم تكن العرب حتى وفاة محمد تعرف شيئًا عن الكنائس المزدهرة في سوريا وفلسطين»[1].

وتبيّن كارين أنّ البون شاسع بين ما نزل على محمد ﷺ وبين العقيدة المسيحية فتقول: «وهكذا فعندما طلب محمد من قريش أن يقبلوا أن ما جاءه هو تنزيل من الله لم يكن الموافقة على عقيدة لاهوتية أو مجموعة من الأفكار اللاهوتية؛ إِذْ لا يوجد في الإسلام نصّ على أرثوذكسية لاهوتية»[2]، وفي موضع آخر تنصّ (كارين) على عدم معرفة محمد للتوراة والإنجيل فتقول: «كانت معرفة محمد بالإنجيل والتوراة محدودة، كما أننا نجد في القرآن الأنبياء الذين يبجّلهم العرب مذكورِين على قدم المساواة مع أنبياء التوراة والإنجيل، وتعكس قصص الأنبياء في القرآن وضع محمد والمسلمين الأوائل في مكة،

(١) سيرة النبي محمد، لكارين أرمسترونج، ص١١٤.

(٢) سيرة النبي محمد، لكارين، ص١٩٧.

وتختلف كثيرًا عمّا تعكسه القصص الإنجيلية كما وردتْ في الكتاب المقدس»، وتقول: «وليس لدى المسيحيين ما يعادل التوراة والشريعة، وهم يميلون للاعتقاد أنّ تلك الشعائر الدينية لا بد وأنها عبء معوق بالإضافة إلى كونها نوعًا من الروحانية هاجمها العهد الجديد، وندَّدَ بها بولس كجزء من هجومه على المسيحيين اليهود»[1].

ولكن قد يجادل بعض المستشرقين فيما قالته كارين، ويحاولون ذِكْر ما كان في الجاهلية من شِعْر لبعض شُعراء النصارى، فنقول: إنّ البون شاسع بين القول في الشِّعْر والقول في الكتب السماوية التي تبيّن أصول العقائد، وأحكام الشرائع، وآداب الحياة الإنسانية، والذي يراجع أصول الديانتين: المسيحية التي يؤمن بها باول، والإسلامية التي جاءت بعدها لتصحّحها؛ يرى صِدْق ما قالته (كارين) في هذا الصدد، إِذْ تقول: «إذا كانت المسيحية تتّسم برؤية تشاؤمية إلى حدّ ما للعالم الطبيعي بسبب الاعتقاد بأنه انتكس وفقد كماله الأوّل لخطيئة الإنسان، فإنّ الإسلام لا يؤمن بسقوط الإنسان في الخطيئة الأصلية بالمعنى المسيحي، ولا يقول بأنّ الموت والألم والأحزان تمثّل عقوبات للإنسان على سقوطه الأول. القرآن لا يطلب من المسلمين أن يتخلَّوا عن العقل، فالآيات موجهة إلى قوم يعقلون، ولقوم لا يعقلون، والقرآن يحثّ المسلمين على أن

(١) سيرة النبي محمد، لكارين أرمسترونج، راجع صفحات: ١٥٣، ١٥٤، ١٩٧، ٣٨٩.

ينظروا إلى الآيات في العالم الطبيعي، وأن يتدبّروها بعناية... ولم ينشأ في يوم من الأيام أيُّ صراع بين البحث العلمي العقلاني وبين الدين في التراث الإسلامي على نحو ما حدث في القرن التاسع عشر في المسيحية»[(١)].

لقد ذكرتُ هذه النقولَ المطوّلة عن الباحثة الراهبة المسيحية (كارين) لا لأنها أصدق قولًا وأدعى للقبول لدى الطاعنين في مصدر القرآن من المستشرقين وغيرهم فحَسْب، وإنما لأنها لا تزال تعتنق ديانة المسيحية، وما زالت تمارس الرهبنة[(٢)].

ولكنها مع كلّ هذه الاعتبارات التي ذكرتها لا تغني أقوالها عن الحجج الساطعة التي ذكرها علماء الإسلام في دحض هذه الافتراءات التي قال بها المستشرقون قديمًا، وتابعهم فيها (باول) حديثًا، وللإمام محمد عبده ردّ ناصع على القول بتأثر محمد ﷺ بالتوراة والإنجيل، أو أنهما مصدَرَا القرآن، يقول الإمام: «إنّ أدنى مقارنة بين أصول الدين الإسلامي وأصول الديانة المسيحية تبيّن استقلالية القرآن في مصدره الإلهي؛ فمِن المعلوم أنّ الديانة المسيحية تقوم في أصولها على الخوارق، فإذا قرأت الأناجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلًا على صِدْقِه إلا ما كان يصنع من الخوارق، وعددها في الأناجيل يطول شرحه.

(١) سيرة النبي محمد، لكارين، ص١٩٧.

(٢) راجع مقدمة كتاب: سيرة النبي محمد، لكارين.

والأصل الثاني: سلطة الرؤساء، وقد أحكم هذه السلطة ما ورد في إنجيل متّى ١٦: ١٩: (أعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكلّ ما تربطه على الأرض يكون مربوطًا في السماوات، وكلّ ما تحلّه على الأرض يكون محلولًا في السماوات)، وهذا منح للرؤساء الدينيّين في المسيحية سلطة على المرؤوسين في عقائدهم وما تكنّه صدورهم، والأصل الثالث: ترك الدنيا والانقطاع للآخرة؛ تجد ذلك في الأناجيل وفي أعمال الرّسُل، والأصل الرابع: الإيمان بغير المعقول، فالإيمان منحة لا دخل للعقل فيه، وإنّ من الدِّين ما هو فوق العقل، قال القديس (أنسليم): (يجب أن تعتقد أولًا بما يعرض على قلبك بدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت، والكون وما فيه لا يهم المؤمن أن يجيل فيه نظره)، والأصل الخامس: أنّ الكتب المقدّسة حاوية لكلّ ما يحتاج إليه البشر في المعاش والمعاد، والأصل السادس: التفريق بين المسيحيين وغيرهم، حتى الأقربين، جاء في الإصحاح العاشر من إنجيل متّى [٣٤]: (لا تظنوا أني جئت لأُلقِي سلامًا على الأرض، ما جئت لأُلقي سلامًا، بل سيفًا [٣٥] جئت لأفرّق الإنسان ضدّ أبيه، والابنة ضدّ أمها، والكنة ضد حماتها وأعداء الإنسان أهل بيته)»[(١)]. وفي مقابل هذه الأصول ننظر أصول الإسلام لنرى مدى ما بين

(١) راجع: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٣/ ٢٧٧- ٢٨٣) (باختصار شديد). ونتج عن هذه الأصول ما مُلِئَت به كتب التاريخ من آثار غاية في السوء على نفوس البشر المؤمنين بها، ولعلّ ما كُتِبَ
=

أصول الديانتَيْن من بون شاسع: «الأصل الأول: النظر العقلي لتحصيل الإيمان، والأصل الثاني: تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض، والأصل الثالث: البُعد عن التكفير، والأصل الرابع: الاعتبار بسنن الله في الخلق، والأصل الخامس: قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها، يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١- ٢٢]، والأصل السادس: حماية الدعوة منعًا للفتن، والأصل السابع: مودّة المخالفين في العقيدة، والأصل الثامن: الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة...

وهذه المقارنة هي التي جعلت أحد القساوسة البروتستانت يقول: إذا كان الدِّين المسيحي ليس شيئًا سوى الكثلكة المحتاجة إلى الإصلاح أو الكثلكة التي دخلها الإصلاح بالفعل (المذهب البروتستانتي) فالقرن الموفي للعشرين لا يكون مسيحيًّا أبدًا»[(١)].

فمن لم يستطع عقد هذه المقارنة التي أوفاها الإمام حقّها، وذكر أصول الخلاف بين اليهودية والمسيحية من جانب، وبين الإسلام من الجانب الآخر؛

=

عن محاكم التفتيش أوضح دليل على ذلك. المرجع نفسه (٣/ ٢٨٤- ٢٩٤)، وراجع: (٣/ ٣٠١- ٣١٤).

(١) راجع: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٣/ ٣٥٦)، لترى ما نتج عن هذه الأصول من حضارة إسلامية وفكر إسلامي راق.

فلْيَجلِسْ أمام القرآن الكريم ليرى كيف تحدَّث القرآن عن الواقع العربي وقت نزوله -وفي أيّ وقت يرتكس فيه إلى الجاهلية- وكيف يتحدّث عن العقلية العلمية لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ليرى هل كان القرآن صدى لهؤلاء أو أولئك؟ يقول الدكتور/ عبد الله دراز في بيان ذلك: «يقول الملحدون: إنّ القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الذي يمثّل روح عصره أصدق تمثيل، ثم يمثّل بها أنكى تمثيل، ومِن قولهم ندعوهم لقراءة القرآن فليقرؤوا الزهراوين (البقرة وآل عمران) وما فيهما من المحاورة لعلماء اليهود والنصارى في العقائد والتواريخ والأحكام، أو ليقرؤوا ما شاؤوا من السور المكية والمدنية التي فيها ذكر لأهل الكتاب، وينظروا بأيّ لسان يتكلّم عنهم القرآن، وكيف يصوّر لنا علومهم بأنها الجهالات، وعقائدهم بأنها الضلالات والخرافات، وأعمالهم بأنها الجرائم والمنكرات، وراجع على سبيل المثال: [آل عمران: ٦٥، البقرة: ١٤٠، آل عمران: ٩٣، البقرة: ١٠٢، آل عمران: ٦٤، ١٨١، والمائدة: ١٨، ٧٢، ٧٣، والنساء: ١٥٥: ١٦١]، فهل ترى بعد هذا كلّه صورة أساتذة يتلقى عنهم صاحب القرآن علومه، أم بالعكس ترى منه معلمًا يصحح لهم أغلاطهم، وينعي عليهم سوء حالهم؟»[(١)].

---

(١) النبأ العظيم، ص٧١. ويقول الدكتور/ دراز: «والراسخون في العلم من أهل الكتاب آمنوا به وصدقوا ما فيه، راجع [الرعد ٤٣]، فلو كانوا لمحمد معلمين لآمنوا بأنفسهم بدلًا من الإيمان به، فمَن زعم أن =

ولابن خلدون تصوير اجتماعي دقيق في هذه المسألة يتّفق مع هذا التحليل الدقيق الذي قاله الدكتور/ دراز، يقول ابن خلدون عن حال علماء اليهود والنصارى وقت نزول القرآن: «إنهم بدوٌ عوامّ مثل العرب البدو أنفسهم، وكانوا لا يعرفون عن دينهم إلا ما يعرفه العامّة من أهل الكتاب»(١).

ولعلّ سائلًا يسأل: وهل كانت نُسَخ التوراة والإنجيل آنذاك مكتوبة بالعربية، ومنتشرة بين العرب وأهل الكتاب حتى يسهل على محمد قراءتها -على فرض علمه القراءة- والنقل عنها؟ ويجيب الدكتور/ دراز على هذا التساؤل بقوله: «لم تظهر الحاجة إلى ترجمة الكتاب المقدّس إلى اللغة العربية إلا في القرنين التاسع والعاشر للميلاد»(٢).

=

محمدًا كان يعلّمه بَشَر فليقل لنا: ما اسم هذا المعلِّم؟ ومن ذا الذي رآه وسمعه؟ وماذا سمع منه؟ ومتى كان ذلك؟ وأين كان؟ وراجع كلام د/ دراز عن الحدّاد الرومي، ص٨٠، الذي ادّعى المستشرقون أنه كان معلِّمًا لمحمد ﷺ، وتفسيره سورة النحل: ١٠٣.

(١) راجع: مقدمة ابن خلدون، ص٤٨٧، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ.

(٢) راجع بحث: (مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن) د/ عبد الرزاق هرماس، ص١٣٣- ١٤٢، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة الرابعة عشرة، العدد الثامن والثلاثون، ربيع الآخر ١٤٢٠هـ. يقول هرماس: «وكان كلّ ما لدى اليهود والمسيحيين في جزيرة العرب بعض الصحف التي ينسبونها إلى التوراة والإنجيل، ومنها تلك الصحف التي أخرجها يهود يثرب للنبي ﷺ لمّا أنكروا عقوبة رجم الزاني المحصن». انظر الحديث في الجامع الصحيح للبخاري، كتاب الحدود، باب أحكام أهل الذمة

=

إذن فلم يكن أمام محمد ﷺ نُسَخٌ مِن التوراة أو الإنجيل باللغة العربية لينقل عنها بواسطة أو بغير واسطة، وقد أفاض الدكتور/ عبد الراضي عبد المحسن في بيان استحالة رجوع محمد ﷺ للتوراة أو الإنجيل، وذلك بالنظر إلى تاريخ ترجمتها إلى العربية فقال: «إنّ تاريخ ترجمة العهد القديم والعهد الجديد يقوم حائلًا أمام شبهة التعلُّم منهما؛ وذلك لأن النسخة العربية لهذه الكتب لم تكن موجودة في عهد النبي ﷺ، ولا بعده بقرون، وهذا ما أكَّده القسّ روبير شدياق في تحقيقه لكتاب (الردّ الجميل للغزالي)؛ إِذْ أثبت أنه لم يكن في عصر الغزالي وهو القرن الخامس للهجرة أيّ ترجمة عربية للعهد الجديد... وأمّا وجود نصّ عربي للتوراة فأبعد في الاستحالة، إضافةً إلى أنه لم يكن في مكة أحدٌ مِن علماء اليهود يمكن الادّعاء بأنّ محمدًا تعلَّم منه، وأمّا الزعم بإمكانية الإفادة من يهود المدينة فذلك باطل من الناحية التاريخية؛ لأنّ السور المكية هي التي عرضت أطول قصص التوراة بتفاصيلها الدقيقة مثل: (الأعراف، ويونس، وهود، وإبراهيم، ويوسف، والحجر، والإسراء، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، وسبأ، و(ص)، والذاريات)...إلخ، وذلك يعني انهيار الدعوى محلّ النزاع من

=

وإحصانهم، ويقول هرماس: «ويمكن الرجوع إلى الإسرائيليات في كتب التفسير لبيان ما نقله علماء التفسير عن اليهود والنصارى من أفكار فيها من التناقض ما لا يقبله عقل، ولا ينهض به نقل».

أساسها، فلا النصّ موضع الدعوى موجود في زمنه ﷺ، ولا إمكانية القراءة سبيل الإفادة متوفّرة لدى المُدَّعَى عليه. إنّ نُسَخَ العهد القديم والجديد المتعدّدة تحول دون القيامِ بهذه الإفادة؛ فمِن أيّ نُسَخِ العهد القديم أفاد محمد ﷺ؟ هل من توراة السامرة أم من الترجمة السبعينية، أم توراة العِبرانيين؟ ومن أيّ الأناجيل أفاد؟ أمِن إنجيل الأرثوذكس أم مِن إنجيل الكاثوليك، أم من إنجيل البروتستانت، أم إنجيل الأرمن؟ أم مما تم اكتشافه مؤخرًا في وادي قمران بالأردن؟ أو في نجع حمادي بمصر؟»[(١)]، ولقد كان باول موضوعيًّا عندما تساءل قائلًا: هل تحتاج الديانة المسيحية إلى ديانة بعدها لتكملها؟ وكان جوابه: نعم[(٢)].

ولو أنه أجاب على هذا التساؤل إجابة شافية لانتهى إلى ذِكْر كلّ ما ذكرناه الآن في الردّ على هذه الشُبَه، بل ولَمَا أثار مثل هذه الأقاويل في كتابه، ورَدَّدَ ما قاله

---

(١) الغارة على القرآن، للدكتور/ عبد الراضي محمد عبد المحسن، ص٦٣، ٦٦، ٦٧، دار قباء للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م (بتصرف). ويظلّ هذا القول صحيحًا في حقّ محمد ﷺ حتى وإن اختلف الباحثون في تحديد الزمن الذي تُرجمت فيه التوراة إلى العربية، فمن المؤكّد أنه لم تكن بين يدي النبي ﷺ نسخة عربية من التوراة أو الإنجيل، ودليل ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة: «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعِبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: لا تُصَدِّقوا أهل الكتاب، ولا تكذِّبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ ...» الآية [البقرة: ١٣٦]، فلو كانت هناك نسخة عربية للتوراة لما كان ذلك. صحيح البخاري (٩/ ١٣٦)، طبعة دار الشعب، مصر، ١٩٦٠م.

(٢) دروس قرآنية، ص١٣٢.

السابقون له من المستشرقين، ومن البداهة أن نقول: إنّ دينًا يحتاج إلى دِين آخر يُكْمِلُه -كما أقرّ باول- لا بد أن يكون محلّ بحث من أتباعه عن هذا الدين المُكْمِل لدينهم، وأنّ عليهم إذا وجدوا الدّين الذي يُكْمِل دينَهم -إن كانوا جادّين في بحثهم صادقين في دعواهم- أن يسارعوا إلى اعتناقه والذّود عنه. وأنا أزعم أن دين الإسلام وكتابه القرآن هو هذا الدِّين الذي أنزله الله مُكملًا ومصححًا لتوراة موسى ولإنجيل عيسى عليه السلام.

والدليل على ذلك إذا أراده باول من القرآن ليقدِّمه كدرس من دروسه القرآنية لأبناء دينه فلْيَتْلُ عليهم قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

فإضافةً إلى أنّ القرآن امتدادٌ لِمَا وصَّى اللهُ به نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى فإنه -بالنسبة لغيره من الكتب السماوية السابقة- جاء مهيمِنًا عليها ومصدِّقًا لما فيها من الحقّ، يقول سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، وكاشفًا لِمَا كَتَمَه اليهود

والنصارى وما أخفَوه مِن كتبهم، يقول ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

ويقول ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، ومفصِّلًا من الشرائع ما لم يكن في شريعة موسى ﵇، ومبيِّنًا لِمَا بدَّله وغيَّره الأحبار والرهبان منها: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤].

فهل يجد باول في هذه الآيات وغيرها ما يدلّ على أنها اقتبست أو نقلت أو أخذت عن اليهودية أو المسيحية؟

يقول الأستاذ محمد رشيد رضا موجهًا حديثه للطاعنين في مصدر القرآن: «إذا كنتم تؤمنون بأنّ اليهوديةَ دينٌ مؤقَّتٌ خاصٌّ غيرُ عامّ وانتهى زمانها، والمسيحيةَ إصلاحٌ روحي لليهودية ليس فيها تشريع، ولا تصلح وصاياها الزهدية التواضعية لحضارة هذا العصر، وإنما كانت موقوتة لإصلاح غلوّ اليهود والروم في الطمع الدنيوي والشهوات، فلم يبقَ أمامنا إلّا الإسلامُ وكتابُه القرآن...»[1].

(١) الوحي المحمدي، لمحمد رشيد رضا، ص٣١٤، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

فكيف يمكن أن تكون هاتان الديانتان -وهما بهذا الوصف- مصدرًا لدين عالمي فيه من التشريع أحكمُه، ومن البيان أروعُه، ومن القول أصوبُه؟

ثم نقول: ما المانع أن يكون القرآن وحيًا أصيلًا مأخوذًا من النَّبْع نفسه الذي اغترفتْ منه الديانات السماوية الصحيحة؟ «لماذا تُحَرِّمون على الإسلام ما تبيحونه لليهودية والنصرانية؟ وهل مبدأ جواز اتصال السماء بالأرض عن طريق الوحي مبدأ مسلَّمٌ به أم لا؟ فإذا كان مبدأ مسلَّمًا به فلا معنى لأنْ تحتكرَه اليهوديةُ المحرفة، ولا النصرانية المزيفة وتمنعَه عن الإسلام، وإذا لم يكن مسلَّمًا به فلا مجال للديانات جميعًا»(١).

إنّ العلاقة بين محمد ﷺ واليهود قامت من بدايتها على الصراعِ لا التعاونِ، ففي مكة وقفَ اليهود بجانب المشركين يمدّونهم بالألغاز ليسألوا بها محمدًا، وفي المدينة نقضوا العهد مع محمد ﷺ، وكانت بينه وبينهم غزوة بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ثم خيانتهم له في غزوة الأحزاب، وألَّبُوا الأعراب على المسلمين في خيبر فأجلاهم عنها، وتضمَّن القرآن لَعْنَهم، فقال ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ

(١) انظر بحث: (دراسات في فهم المستشرقين للإسلام)، للدكتور/ توفيق الواعي، ص١٥٤، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد الثامن عشر، ١٤١٢هـ.

عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا...﴾ الآية [المائدة: ٤١][1].

إنّ في القرآن آياتٍ تتحدّى أهل الكتاب وغيرَهم أن يأتوا بمثله، فلماذا سكتوا عن هذا التحدِّي؟ ومحمد ﷺ قد أعلن الحرب العقائدية عليهم؛ لتصحيح ما هم عليه من أباطيل، كالقول في حقّ الله ورسله بما يخالف العقل والنقل، يقول ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ثم إنّنا نلاحظ فيما ذكره (باول) تعددًا في المصادر التي زعم هو والمستشرقون أنها مصدر للقرآن الكريم يضمّ فيه بين البشر، والملائكة،

(١) (دراسات في فهم المستشرقين للإسلام)، للدكتور/ توفيق الواعي، ص١٥٥.

والكهنة، والكتب. وهذا من شأنه -من الناحية العقلية التي يؤمن بها هؤلاء المستشرقون ويمجّدونها- أن يُنْتِجَ أقوالًا متناقضةً، أو متفاوتةً في بلاغتها ودقّتها، وتشريعاتٍ متناقضةً أو ناقصةً في أحكامها وما تجمعه من علوم عن الكون والحياة. والقرآن الكريم لا نجد فيه شيئًا من ذلك، بل نجد فيه تحدِّيًا لِمن يرى عدمَ ألوهية مصدره، نفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

يقول الله ﷻ في هذه الآية: أفلا ينظر هؤلاء في القرآن، وما جاء به من الحقّ نَظَرَ تأمُّلٍ وتدبّر، حيث جاء على نسَقٍ واحد مُحْكَمٍ يقطع بأنه مِن عند الله وحده؟ ولو كان مِن عند غيره لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا[1].

ولعلّنا نتبيّن من الآية السابقة أنّ القرآن دعا مَن يقرؤه إلى التدبّر والتمعّن فيما يعلنه من حقائق للبحث في صحتها ومقارنتها بما سواها، ولو كان هذا الكتاب من عند غير الله لجعل محمدٌ لنفسه استثناءً خوفًا من التغيّر أو التبدل.

وبعد هذا العرض المطوّل للردّ على هذه الشبهة نختمها بما قاله الأستاذ (مالك بن نبي) مبينًا أنّ ما حدث هو العكس؛ فقد تأثّرت الأفكار اليهودية والمسيحية بالإسلام: «إنّنا لا ندري إلى أيّ مدى يمكن أن تكون ثوراتُ الفكر

(١) سبق تفسير الآية.

المسيحي منذ الحركة الألبية حتى حركة الإصلاح البروتستانتي محسوبةً كنتائجَ مباشرةٍ أو غيرِ مباشرة لمفهوم العقيدة في القرآن»[1].

وليس ما قاله (مالك بن نبي) بغريب، وقد جاء في قاموس (برتلس مان): «لقد أثَّرَ الإسلام تأثيرًا عظيمًا في العقيدة المسيحية والفلسفة، وقاد -على سبيل المثال- إلى نقاش جديد حول عبادة الصور وتقديسها في المسيحية، إقرار المسيحية بالوظيفة النبوية للمسيح عليه السلام والتي لم تجد لها مكانًا في وثائق الكنيسة إلا في قرار مجمع الفاتيكان الثاني عام ١٩٦٥م... ودعوة البروتستانت إلى حرية قراءة الكتاب المقدّس... ورفض احتكار الكنيسة تفسيرَه، والتي فتحت الباب أمام حركة نقد الكتاب المقدّس في الغرب، تلك الحركة المنهجية التي تَدِين بالفضل لعلماء الإسلام؛ كابن حزم والقرطبي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم... وتحريم البروتستانت لعبادة الأيقونات، ومنع وضعها في الكنائس؛ لأنها عمل وثني»[2].

الشبهة الثانية: أنّ محمدًا أخذ القرآن عن ورقة بن نوفل، فقد كان مسيحيًّا، أو عن الكهنة المنتشرين في مكة، أو محمدٍ نفسِه؛ لأنه يضيف ويحذف كما يشاء، وأنه حاول أن يجد حلًّا وسطًا في مسألة الأصنام، فكانت منه هذه

---

(١) الظاهرة القرآنية، ص١٩٢، مكتبة عمار، القاهرة، ١٩٧٠م. (بتصرف).

(٢) الغارة على القرآن، ص٩٠، ٩١.

المحاولة التوفيقية بين ما في القرآن من حَمْلةٍ شديدة على الأصنام، وبين مَدْحِها ببعض الآيات المذكورة في سورة النجم! كما نفهم من كلام باول، وهي المسألة التي يسميها بعض علماء المسلمين بقصة الغرانيق.

هناك سبب من الأسباب المهمّة التي تجعل كثيرًا من المستشرقين، ومنهم باول يسارعون في نسبة الوحي إلى ورقة بن نوفل أو إلى غيره من المصادر البشرية غير الإلهية، ألَا وهو الثقافة التي غرسها الكتاب المقدّس عن الأنبياء في عقول أتباعه ومعتنقيه؛ فالأنبياء في الكتاب المقدس -وحاشاهم أن يكونوا كذلك- كَذَبةٌ وخوَنة وزُناة وسفّاحون(1)! وهذا السبب أراه جديرًا بالبحث؛ لأنه العقدة الأولى التي تؤثِّر في المنصفين من المستشرقين، فضلًا عن المتعصِّبين منهم، فإذا قرؤوا في القرآن أو سمعوا عنه تخيّلوه كالكتاب المقدّس في مضمونه وشكله، ولستُ مبالغًا في ذلك؛ فقد ألّف القسّ (تشارلس واطس) كتابَ (أضرار تعليم التوراة والإنجيل) وبيان ما فيها من مخالفة العلم والعقل والتاريخ، وطُبع في مطبعة واطس- لندن، وتُرْجِم إلى العربية بمطبوعات الموسوعات في مصر سنة ١٣١٩هـ، ١٩٠١م، بل وكثيرًا ما يكون هذا السببُ

---

(١) النبوّة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، لأحمد عبد الوهاب، ص١٩- ٢٢، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

وراء المقارنات التي يعقدها بعض المستشرقين بين القرآن والكتاب المقدّس، على نحو ما نجد عند باول وغيره.

ولقد أصاب السيدُ جمال الدين الأفغاني كَبِدَ الحقيقة عندما قال لأحد مجادِليه من النصارى: «إنكم فصَّلْتُم قميصًا من رقاع العهد القديم وألبستموها للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ»، وقال رشيد رضا للمستشرقين: «إنكم فصّلتم قميصًا مما استنبطتم من تاريخ الإسلام لا من نصوصه، وحاولتم خلعها على محمد»[1]. ولكن مع كلّ ذلك يبقى التساؤل: هل تَعَلَّم محمد ﷺ القرآن من ورقةَ أو بَحِيرا أو غيرِهما من البشر؟

هذه الشبهة لا تزال من يوم أن قال أعداء محمد في حياته: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، حتى يوم الناس هذا يردّدها أعداء الإسلام، إلّا أنّ مصادرهم العلمية عجزَت، فلم تقدِّم لنا تراثًا علميًّا مِن علمِ هؤلاء المعلِّمين الذين علَّموا محمدًا، سواءٌ كان ورقةَ أو بَحِيرا أو غيرهما! وإذا كان ورقةُ أو بَحِيرا من قساوسة النصارى، لا بل من أعظم علمائهم، فأين ذِكرُهم في كتب اليهود أو النصارى؟

---

(١) الوحي المحمدي، ص٧٨.

هل أصدرت المعابد والكنائس المختلفة منذ نشأتها صكًّا بمعاقبة ورقةَ وبحيرا بحذفِ اسمِهما من التراث اليهودي والمسيحي والكتب المقدّسة؛ لأنهما سَرَّبا الوحي الإلهي لمحمد؟!

إنّ التحدّي لا يزال قائمًا بيننا وبين الأدعياء بأنّ ورقةَ، أو غيرَه من البشر، قد علَّم محمدًا القرآنَ أن يأتونَا بتراث الرجلَيْن مِن كتبهم؟ أو أن يميِّزوا أقوالَ ورقة وبحيرا في القرآن؟ أو حتى يميِّزوا قولَ أحدهما عن الآخر. إنّ الحقيقة التي يجب أن يعرفها باول ويسوقها درسًا من دروسه لأبناء دينه يمكن أن نجملها في النقاط التالية:

١- «إنّ القرآن لأعلى وأوسع من كلّ ما كان يعرفه بَحِيرا، أو ورقةُ، أو كلُّ مسيحيي الشام ونصارى الأرض ويهودها؛ لأن القرآن وما فيه من هيمنة على الكتب السابقة... ومثل هذه الأحكام العليا عليهم لا يمكن أن تكون مُستمدة من أفراد من الرهبان أو الكهنة أو غيرهم، أفاضوها على محمد في رحلته التجارية إلى الشام. سواءٌ أكانت عند بعضهم بقية من التوحيد الموسوي أو العيسوي الذي كان يقول به آريوس وأتباعه، وسواءٌ أكان لدى بعضهم بقية من الأناجيل التي حكَمَت الكنيسة الرسمية بعدم قانونيتها (أبو كريف) كإنجيل طفولة المسيح، وإنجيل برنابا أم لا؟ فمحمد لم يعقد في الشام ولا في مكة مجمعًا مسيحيًّا كمجامع الكنيسة للترجيح بين الأناجيل، ويحكم بصحة بعضها دون بعض. إنّ وقوع مثل هذا منه في تلك الرحلة مما يَعلم واضعو هذه الأخبار

ببداهة العقل مع عدم النقل أنه مُحَالٌ عادةً، وعلى فرض وقوعه يقال: كيف يمكن أنْ يحكمَ بين تلك الأناجيل، وتلك المذاهب برأيه في تلك الخلسة التجارية للنظر فيها، ويأمَنَ على حكمه الخطأَ، وقد صح عنه أنه قال لأصحابه: (لا تصدِّقوا أهل الكتاب، ولا تكذِّبوهم)، ثم إنّ ما في القرآن مما هو مخالف للعهدين العتيق والجديد، وهو مما لا يُعْلَمُ إلى الآن أنّ أحدًا من اليهود والنصارى قال به؛ كمخالفة سِفر الخروج فيمَن تبنّت موسى، ففيها أنها ابنة فرعون، وفي القرآن أنها امرأته. وفيما فيه من عزو صنعِ العجل الذي عبده بنو إسرائيل إلى هارون عليه السلام بعزوه إياه إلى السامري، وإثباتِه لإنكار هارون عليهم في ذلك، بل ما جاء به محمد أكبرُ وأعظم من كلّ ما في الكتب الإلهية، ما صح منها وما لم يصح»[(١)].

٢- لو صحّ أخْذُ محمدٍ ﷺ عن النصارى في طريقه للشام لَمَا كان من المعقول أن يعتمدَ محمدٌ على ما سمعه في الطريق من أُناس مجهولين لا يوثق بمعرفتهم، ولا يصدِّقَهم فيجعَلَه أصلًا للوحي الذي جاءه في قصة موسى وقصة شعيب عليهما السلام، ولو كان محمد تلقّى عن علماء النصارى في الشام شيئًا أو عاشرهم لنَقَل ذلك أتباعُه الذين لم يتركوا شيئًا عُلِم عنه أو قيل فيه -ولو لم يثبت- إلا ودوَّنوه ووكَلُوا أمر صحته أو عدمها إلى إسناده وما عُلِم من سيرة

(١) الوحي المحمدي، ص١٠٨، ١٠٩.

رواته. ولو وقع ما ذكروه لاتخذه أعداؤه من المشركين شُبهةً يحتجّون بها على أن ما يدَّعيه من الوحي قد تعلَّمه في الشام من النصارى، فإنهم كانوا يورِدون عليه ما هو أضعف وأسخف من هذه الشُّبهة، فقالوا: (إنما يعلِّمُه بشر)، نسبةً إلى حدّاد رومي لا يحسن نطق العربية كان يقف عنده، فتولّى القرآن الردّ عليهم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣](١).

٣- وأمّا القائلون: إنّ محمدًا ﷺ هو مصدر القرآن، وأنه أتى به من عنده، فلَنا أن نسألهم: إذا كان محمد كاذبًا في ادّعائه أن القرآن من عند الله، فلماذا تركه الله ينشر دعوته ثلاثة وعشرين عامًا؟ بل ولا يزال دينه ينتشر إلى الآن؛ مع أنه مكتوب في كتاب موسى (كتاب أرميا): إنّ الله وَعَدَ بإهلاك كلّ إنسان يدّعي النبوّة هو وأسرته خلال عام(٢)؟

٤- إنّ نصوص القرآن صريحة في أنه ﷺ لم يكن يعرف شيئًا من أخبار الرُّسل وقصصهم قبل الوحي، ومن الشّواهد على ذلك قوله تعالى بعد قصة

---

(١) الوحي المحمدي، ص١٠٣، ١٠٤.

(٢) كان هذا التساؤل المُسْكِتُ أحدَ الأسئلة التي كان على إثرها إسلام أحد القساوسة. راجع كتاب إظهار الحق: قساوسة وعلماء ومستشرقون أشهروا إسلامهم، لمحمد عبد الحليم عبد الفتاح، ص٧٦، دار الكتاب العربي، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، وهو غير كتاب رحمة الله الهندي المشار إليه سابقًا.

نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، ونحوه في أواخر سورة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقوله تعالى عقب قصة موسى في مدين وما بعدها من سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]، ﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]. ومن الشواهد التي لم يكن يعرفُها النبي ﷺ ولا أهلُ الكتاب قولُه تعالى بعد قصة زكريا وولادة مريم وكفالته لها، فيتوهم أنه مأخوذ عنهم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤][1].

٥- إنّ النبي ﷺ ما كان يرجو أن يكون هو النبي المنتظَر، وهكذا حكى عنه القرآن، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦][2].

---

(١) الوحي المحمدي، ص١٠٤، ١٠٥ (بتصرف يسير).

(٢) الوحي المحمدي، ص١٠٥.

٦- إن النبي الذي أوحى الله ﷻ له هذا الكتاب لم يكن قبل الوحي يعرف شيئًا عن القراءة والكتابة، بل كان أُميًّا، وهذه حقيقة أكّدها القرآن، وأكّدها المؤرخون أيضًا، يقول الله ﷻ : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وكأنّ الله ﷻ أراد أن يُبطِل كلّ ريب وكلّ شكّ في هذه المسألة فاختار محمدًا أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب؛ فهو اختيار مقصود.

٧- وفي القرآن نفسِه إشارةٌ واضحة إلى ما سيقوله أعداؤه من شُبَه؛ فأتى بها وفنَّدها، ولو كان هذا القرآن من عند محمد أو من عند غيره من المصادر البشرية لاحترز خوفًا من افتضاح أمره وبيانِ كذبه، لكنه لم يفعل؛ مما يؤكّد إلهية المصدر القرآني، يقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

٨- يقول الدكتور/ دراز: هل كان هذا النبي الأمّي -صلوات الله وسلامه عليه- أهلًا بمقتضى وسائله العلمية لأنْ تجيشَ نفسُه بتلك المعاني القرآنية؟ سيقول الجهلاء من الملحدين: نعم، فقد كان من ذكائه الفطري وبصيرته النافذة ما يؤهّله لإدراك الحقّ من الباطل من الآراء... حتى لو أن شيئًا في السماء تَنالُه الفِراسة أو تُلْهِمُه الفطرة أو تُوحِي به الفكرة لَتناوله محمد بفطرته السليمة وعقله الكامل وتأمّلاته الصادقة. ونحن قد نؤمن بأكثر مما وصفوا من شمائله، ولكنّنا

نسأل: هل كلّ ما في القرآن مما يستنبطه العقل والتفكير، ومما يدركه الوجدان والشعور؟ اللهم كلّا؛ لأنّ طبيعة المعاني القرآنية ليست مما يُدْرَك بالذّكاء وصِدق الفِراسة؛ فأنباء الماضي لا سبيل إليها إلا بالتلقّي والدراسة، وفي القرآن جانبٌ كبير من المعاني النقلية البحتة التي لا مجال فيها للذّكاء والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقّي، وذلك مما قصَّه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق، وما فصَّله من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقع، فهل التاريخ يمكن وضْعُه بإعمال الفِكْر، أم هل عاصرَ محمدٌ هذه الأمم الخالية وتنقّلَ فيها وشاهدَ وقائع أهلها شهادة عيان؟ أم أنه وَرِثَ كتبَ الأوّلين وعكفَ على دراستها حتى أصبح من الراسِخين في علم دقائقها؟

وإذا قال البعض: إنّ معرفة مجمل التاريخ من الأحداث العظام مما لا يخفى على أحد من أهل البدو أو أهل الحضر، نقول: لكن هناك تفاصيل دقيقة لا يعرفها إلا القليل من جهابذة الباحثين؛ فترى مثلًا في قصة نوح في القرآن أنه لبث ألف سنة إلا خمسين عامًا، وفي سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة، وترى في قصة أصحاب الكهف أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية، وفي القرآن أنهم لبثوا في كهفهم: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، وهذه السنون التّسع هي فرق ما بين السنين الشمسية والقمرية... فهل من الممكن أن تأتي هذه التفاصيل من رجلٍ أميٍّ يعيش مشغولًا برِزْق نفسِه وزوجه وأولاده، راعيًا للغنم بالأجر أو تاجرًا بالأجر، لا صِلَة له بالعلم والعلماء، يقضي

في هذا المستوى أربعين سنة من عمره، ثم يَطلُعُ علينا بين عشيّة وضحاها فيكلِّمُنا بما لا عهد له به في سالف حياته، وبما لم يتحدّثْ إلى أحد بحرفٍ واحد منه قبل ذلك، ويُبدِي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقماطرهم؟ أيُّ منطق يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العلمي نتيجةً طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمّية؟ إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطَّفْريّ سِرٌّ آخرُ يُلتمَس خارجًا عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة، ولقد كان ملاحدة الجاهلية أصدقَ تعليلًا لهذه الظاهرة، فقالوا: إنه لا بد أن تكون هذه العلوم قد أُمْلِيَت عليه أو درَسها على يد معلِّم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]، ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، ولقد صدقوا؛ فإنه درسها على أستاذه الروحِ الأمين، واكتتبها، ولكن من ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣- ١٦]، ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

وإضافةً إلى ما سبق فإنّ في القرآن من الحقائق الدينية الغيبية ما لا سبيل للعقل إليها؛ كالحديث عن الجنة والنار، والملائكة، والحساب، والميزان، والصراط. وإضافةً إلى ما سبق حديث القرآن عن المستقبل مما لا يعرفه محمد

ولا غيرُه، وذلك مما يتعلّق بمستقبل الإسلام في نفسِه أو في شخص كتابه ونبيّه، أو فيما يتعلّق بمستقبل الحزبين: حزب الله، وحزب الشيطان. راجع [الرعد: ١٧، إبراهيم: ٢٤، ٢٥، والحجر: ٩]، وكلها مكية. ومنها آيات التحدّي بالقرآن [الإسراء: ٨٨، والبقرة: ٢٤]، والآيات الواردة عن عصمته ﷺ، ووقوع ذلك كما في [المائدة: ٦٧]... والنبي بدون الوحي قد يخطئ ظنُّه أحيانًا رغم ذكائه وفطنته...»[(١)].

٩- ويقول د/ توفيق الواعي: «ويكشفُ (آيْتَان دِينِيه) عن تعصّب قومِه، في كتابه (محمد نبي الإسلام) فيقول: «لقد مضى ثلاثة قرون وهم يهاجمون الإسلام بدعوى أنهم يعُدّونه أساطير ليقيموا على أنقاضها حقائق، وها هم بعد طول العناء لم يعملوا شيئًا، وإذا قارنّا النظريات الحديثة التي تفنّن فيها المستشرقون في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وبلجيكا وهولندا، وعارَضْنا بعضها ببعض؛ افتضح حينئذٍ ما انطوت عليه أقوالهم من اختلاط وتلبيس؛ لأنّ نظرياتِهم مبنيَّةٌ على الباطل، وكذلك تولّى بعضُهم تحطيمَ البعض الآخر، فالذي يقوله (دنهارت دوزي) في كتابه (مسلمو الأندلس) ١- ١٨ من أنّ محمدًا شذّ عن قومه العرب بأنّ له خيالًا، وأنّ العرب مجرّدون من الخيال، يكذّبه (هنري

(١) راجع: النبأ العظيم، من ص٣٩، ٤٨، ٦٤، ٦٨.

لامنس) في كتابه (مهد الإسلام) ص: ٤، ٥؛ لأنّه ينسب فوز الإسلام إلى المطابقة بين محمد وبيئته»[1].

الشبهة الثالثة: قصة الغرانيق: تحدّث باول عن قصة الغرانيق، وسبق لنا عرضُها، وقال في شأنها: «هكذا يمكننا القولُ بأنّ محمدًا أراد أن يُبقِي على المكانة الخاصّة لبنات الله وشفعائه، ربما لكي يبنيَ على هذا الأساس نوعًا من الاتفاق مع وجهاء قريش، ثم رفض محمدٌ فيما بعد هذا الحلّ الوسَط بشكلٍ قاطعٍ جاءت الصياغة الأخيرة للآيات من سورة النجم»[2].

هذا القول من باول يتضمن عددًا من الأخطاء الجسيمة:

أوّلها: أنه يعطي درسًا خاطئًا للمسيحيين وينسبه للقرآن، فليس صحيحًا أنّ السور الأولى للقرآن ليس فيها عداءٌ واضح للأصنام، والقرآن بين أيدينا، وأوّل سوره هي سورة العلق، وسورة المدثر، وسورة المزمل، وكلّ ما فيها تعظيمٌ وتمجيد لله، وبيانٌ لوحدانيته وقدرته على الخَلْق والبعث والحساب، وبيانُ أنه علَّم الإنسان ما لم يعلم، وفي هذا اقتلاعٌ لكلّ أثرٍ من آثار الأصنام من عقول كلِّ مَن أسلمَ آنذاك وإلى قيام الساعة، بل إننا نجد في سورة المدثر، وهي السورة الثانية في ترتيب النزول، نجد فيها إشارةً إلى هجرِ الأصنام، في قوله

(١) بحث: (دراسات في فهم المستشرقين للإسلام)، للدكتور/ توفيق الواعي، ص١٤٦.

(٢) دروس قرآنية، ص٩٠.

تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدثر: ٥]، فالرُّجْزُ في لغة العرب وعند جمهور المفسِّرين: الصنم والوثن[١]، وإذا كان اللهُ قد أمَر محمدًا وأتباعَه بهجر الأصنام والأوثان؛ فهذا يهدم ادِّعاء باول بأنّ السور القرآنية كانت تضع الأصنام في درجة الأبناء والبنات لله!

وثاني هذه الأخطاء: قول باول: إنّ محمدًا أضاف الدعاء... إلخ، وقوله: محمدٌ أراد أن يُبقِيَ على المكانة الخاصة لبنات الله... إلخ، وقوله: ثم رفض محمد هذا الحل الوسَط... إلخ.

إنّ هذه الأقوال تصوّر محمدًا ﷺ شخصًا منقطعًا عن الوحي الإلهي، وأنه يتصرّف في النصّ القرآني، وفي أمور العقيدة حسَب هواه الخاصّ، فهو يُضِيف ويَحذِف، وهو يَرفض ويَقبل، وهو يُبْقِي ويَمنَع، ولو أنّ ذلك يتعلّق بأمور الدنيا التي لا تشريع فيها لَكان مستساغًا طالما كان في نطاق العدل، أمّا في مجال الاعتقاد فليس لمحمد ﷺ أدنى تدخُّل؛ لأنه لو تدخَّل في ذلك بشخصه لَدعا الناسَ لعبادته هو أو حتى لتعظيمه أو لرفعه فوق البشر، وهو الذي قال القرآن

(١) مناهل العرفان (١/ ٢٩٧- ٣٠٠). وراجِع: أنوار التنزيل، للبيضاوي (١/ ٤١١)، وهو مِن مَراجع باول. ومعالم التنزيل، للبغوي (١/ ٢٦٥). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٩/ ٦٢). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٥٦٦)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠١هـ. وفتح القدير، للشوكاني (٥/ ٤٥٥).

على لسانه: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]؟ وهو الذي عتبَ عليه ربُّه فيما اجتهد فيه، ولم يُصِب اجتهادُه مرادَ الله، فصحح له ولمَن بعده مِن أمّته ما يريد.

والخطأ الثالث: أنّ باول ساير وردّد كلام المستشرقين في قصة الغرانيق الشهيرة التي تصدّى علماء المسلمين لردّها وتفنيدها منذ القِدَم، وقبل قراءة باول وأساتذته لتراث الإسلام وتوجيه دروس خاطئة من خلاله لأبناء ديانتهم؛ فقد ذكَر أبو بكر بن العربي وغيرُه كثير من علماء المسلمين ما يهدِم هذه القصة من أساسها[١].

ولا أريد أن أذكرَ براهين علماء المسلمين هنا، لكنّي أريد أنْ أنبِّه (باول) إلى أنّ بعض المستشرقين الباحثين بإنصاف قد توصَّلوا في بحثهم لروايات هذه القصة إلى ما توصّل إليه علماء المسلمين من سقوطها وتهافُت مصادرها. وعلى سبيل المثال قالتْ (كارين أرمسترونج) في شأن هذه القصة: «من المهم أن نوضّحَ الأمور المرتبطة بحادثة تلك الآيات، هذا إن كانت قد حدثت بالفعل: هل كان محمد على استعداد لتقديم تنازلات بشأن رسالته التوحيدية في سبيل جذب عدد من الأتباع؟ وهل كان للقرآن أنْ يلوثَ ولو لِوَهْلَةٍ تحت أثر الشّر

(١) راجع: أحكام القرآن، لابن العربي (٣/ ٢٧٧- ٢٨١)، المكتبة التوفيقية، د.ت، وقد ذكر ابن العربي عددًا من المقدمات التي بيَّن بها بطلان هذه القصة.

المطلق؟» ...ثم تعرِض الروايات الواردة عن هذه الآيات من تفسير الطبري، وتعقِّب على ذلك قائلة: «لكن تلك القصة تتعارض مع المأثورات الأخرى، ومع القرآن نفسِه، ويجب أنْ نعلمَ أن مؤرّخًا كالطبري لا يكرِّس بالضرورة لجميع المأثورات التي يسجّلها، فهو يتوقع من القارئ أن يقارنها بعضها ببعض، وأن يقرّر بنفسه مدى صدقها... وهكذا، فحادثة تلك الآيات لا توحي قط أن القرآن قد تلوث لو لبُرهةٍ بشرٍّ حقيقي، فالإسلام لا يكرِّس لمبدأ السقوط بمعناه المسيحي، فهو يخبرنا أنّ آدمَ استسلم لغواية الشيطان، لكن ذلك كان ممارسة للإرادة الحرّة كما يفهمها المسلمون...»، وتقول: «وحتى إذا ما أُخِذَتْ القصةُ كما جاءت في تاريخ الطبري مأخذَ الجد، فليس فيها ما يوحي بأنّ محمدًا كان بصدد حلٍّ توفيقي مشبوهٍ مع قريش... فقد خضع آدمُ -أوّلُ الأنبياء- لغواية الشيطان، كما أنّ رسلًا بعده تعرّضوا لأقوال شيطانية حينما بلَّغوا كلمة الله لأقوامهم، ولم يَعْنِ هذا تلويثَ كتبهم بأثرٍ من الشرّ...»، وبعد صفحات تقول بشأن هذه القصة أيضًا: «إنّ شهادةَ المسلمين (لا إله إلا الله) تُحَرِّم على المسلمين أن يُبَجِّلوا -بأيّ شكل ولو محدود- آلهةً أخرى كاللات، والعزى، ومناة، بل تحرِّم عليهم أن يسمحوا لمغانم أخرى ظاهرية أن تشتِّتَ ولاءَهم لله»[1].

---

(١) سيرة النبي محمد، ص١٧٣، ١٨٠.

والخطأ الرابع: أنّ باول هنا قطّع الآيات تقطيعًا عجيبًا ليؤيّد من خلال هذا التقطيع المتعسِّف رؤيَتَه، ولو أنّه أخذ الآيات التي استشهد بها جملةً واحدة متكاملة لتبيّن له أنها دليلٌ ضدّ دعواه وتصحيحٌ لرؤياه الخاطئة، فالآيات لا يفهم منها مطلقًا أيّ لون من ألوان التسامح أو الموافقة أو الحلّ الوسط -كما يدّعي باول- بين عبادة الله وعبادة الأصنام، بل العكس تمامًا؛ ففي الآيات بيان لحقيقة هذه الأصنام... إلخ.

وفي نهاية هذا المبحث الذي جعلناه عن الشبهات التي أثارها باول حول القرآن، وتناولنا منها ما جاء في الفصل الأول وسائر فصول الكتاب، فإنّنا ننوّه بأنّ باول في نهاية هذا الفصل (أمام القرآن) يردّ على (رودي بارت) في ادّعائه: أنّ القرآن ما هو إلا تكرار هزيل لتاريخ النبوّات -فيقول: «إنّ بارت قد أخطأ الحكم؛ لأن الشيء الجديد الذي جاء به محمد يتمثّل في أنه استطاع أن يُبرِز الشيء الأصيل الثابت من خلال الكمّ الهائل المتفرّق لأجزاء الوحي الإلهي. والذي ظهر بلون أصيل، وليس باهتًا على الإطلاق، وبشكل أوّلي مرتب. إنه الوحي الأصيل الذي هو أصل كلّ الرسالات السماوية، وهو الذي حمله كلّ الرسل إلى أقوامهم، وكان دورهم يقتصر على مجرّد التجديد والتطوير لذات الرسالة»[1].

(١) دروس قرآنية، ص١٠٣.

المبحث الثاني: الرُّسل:

يضم هذا المبحث أربعة فصول من كتاب (دروس قرآنية)، وهي: الرسل، والنبيّ، وعيسى، وخاتم الأنبياء.

باول والرُّسل:

بدأ باول هذا الفصل بالحديث عن مسألة النبوّة، وكيفية تناول القرآن لها، وبعد ذكر آيات قرآنية في هذا الصدد من سور (فاطر، والإسراء، وإبراهيم، والأنبياء) عقَّب قائلًا: «إن نظرية الرسل (النبوة) التي جاء بها محمد بصفة خاصة في الفترة المكية الثانية تعدّ بمثابة تطور مهم لرسالته النبوية، وإنّ تركيزه على الآخرة في خطبه، والتي أكّد فيها قرب يوم الحساب كان ينقصها ذكر تاريخ النبوّات»[(١)].

هذا القول يلاحظ فيه خلط (باول) بين القرآن الكريم والحديث النبوي، فماذا يقصد بقوله: «تركيزه في خطبه»؟ فإن كان يقصد الحديث النبوي فما أكثر الأحاديث النبوية الصحيحة التي تناول فيها الرسول قصص الأنبياء، وهي وحي من الله تعالى[(٢)].

---

(١) دروس قرآنية، ص٨٩.

(٢) يمكن الرجوع إلى أيّ كتاب من كتب الحديث التسعة ليرى فيها باول أحاديث النبي ﷺ عمن سبقه من الأنبياء.

وقصص الأنبياء في القرآن الكريم له أهداف واضحة محدّدة تقوم في أصلها على تثبيت عقيدة التوحيد، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وفعل الخير في الأرض، وعدم الإفساد فيها، وبيان مصير العصاة والمكذِّبين للأنبياء، وكذلك مصير الطائعين للرّسل، إنها تقصد إلى العبرة والعظة مباشرة دونما دخول في بيان تفاصيل وذِكر أنساب كما نرى في العهد القديم(١).

بعد هذا المدخل يقول باول: «إنّ بارت محقٌّ بشكل عام فيما ذهب إليه من التساؤل: كيف يمكن أن يُبعث البشرُ جميعًا يوم القيامة ليُحَاسَبُوا بينما بعض الشعوب الغابرة تنال عقابها الآن في هذه الدنيا؟»(٢).

وفي رأيي أنّ هذا التساؤل على هذا النحو غير مفهوم، فإنْ كنّا نسلِّم أنّ الكافرين بالأنبياء والظالمين لغيرهم من البَشَر في هذه الحياة الدنيا لا بد لهم من عقاب، وأنّ هذا من عدل الله ﷻ، فما المانع أن يكون العقاب بادئًا من الدنيا ومستمرًّا حتى يوم الحساب جزاءً على جرائمهم في حقّ البشرية؟ فقوم فرعون على سبيل المثال ذبحوا الأطفال، واستحيوا النساء، واستعبدوا المؤمنين من بني إسرائيل، وتجرأ فرعون على حقّ الألوهية فقال للناس -كذبًا-: ﴿فَقَالَ أَنَاْ

(١) راجع: المحاور الخمسة في القرآن الكريم، للشيخ محمد الغزالي، ص٩٧- ١١٧، دار الوفاء، مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.

(٢) دروس قرآنية، ص٩٢.

رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، فأصابه اللهُ وقومَه ببعض ألوان العقاب في الدنيا، ومدَّ لهم هذا العقاب يوم القيامة، فما المانع في ذلك؟

واستعرض باول بعد ذلك قصة نوح عليه السلام مشيرًا إلى الآيات الدالة على ذلك، وكذلك قصة هود، وقصة صالح، ولوط، ويسجّل حقيقة دينية ذكرها القرآن في حقّ نبي الله لوط فيقول: «وعلى خلاف ما رُوي في الكتاب المقدس عن لوط، فإنّ القرآن الكريم لا يرمي بظلال سيئة على شخصية لوط»[1]، ويذكر قصة شعيب، وموسى وهارون، ويشير إلى بعض الفروق بين ما ورد في القرآن وما ورد في العهد القديم[2]، ويذكر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لكنه -كعادة المستشرقين- يقف أمام مسألة نسبة محمد إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام فيقول: «يعتبر بعضُ الباحثين ما ذُكر في القرآن عن علاقة إبراهيم بالكعبة، وكذلك ما ذُكر عن إسماعيل، إضافةً مِن وضعِ محمد، إن لم يعتبروا ذلك

(١) راجع ما ورد في الكتاب المقدس، كتاب موسى ١ الإصحاح: (١٩/ ٣٠- ٣٨).

(٢) دروس قرآنية، ص٩٦.

تحريفًا مقصودًا»، وقد ردّ باول على هذه الفرية على طريقته التي يساير فيها المستشرقين أولًا، ثم يأخذ في الردّ عليهم بعد ذلك، فقال في ردّه عليهم: «إنّ التصوّر المذكور في كتاب موسى الأول بأنّ إبراهيم كان يبني بيوتًا في كلّ مكان يذهب إليه يمكن أن يؤيّد وجود هذه العلاقة بين إبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم السلام...إلخ»(١).

وإضافةً إلى ما سبق فإنّ التشكيك في صدق محمد ﷺ أمرٌ لا يقول به باحث منصِف، فأهل الجاهلية الذين عادوه وقاتلوه لم يتهموه بالكذب، والتحريف المقصود كذب على الله، وما كان محمد ﷺ ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله سبحانه وتعالى، فحاشاه أن يكون كذلك.

ويختم باول هذا الفصل بقوله: «هكذا نكون قد توصّلنا إلى الحديث عن العلاقة التي تربط كلّ الرسل مع رسالة واحدة مقدّسة تعود في النهاية إلى أصل واحد، أي: الكتاب الأصلي عند الله، هذا الكتاب الأصلي الذي يسمى في القرآن: ﴿أُمُّ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾، راجع السور: [آل عمران: ٧، الرعد: ٣٩، الزخرف: ٤]»(٢).

(١) دروس قرآنية، ص١٠٢.

(٢) دروس قرآنية، ص١٠٣.

- عيسى عليه السلام:

في هذا الفصل يركز باول على ثلاث قضايا مهمّة:

القضية الأولى: بيان طبيعة المسيح، وأنه لم يكن إلهًا، ولا ابن إله، وإنما هو عبد الله ورسوله.

القضية الثانية: أنّ المسيح لم يُصْلَب، وأنّ المصلوب شخص آخر غيره.

القضية الثالثة: المقارنة بين القرآن والأناجيل في هاتين القضيتين السابقتين.

ونلاحظ أنّ منهجه في تناول هذه القضايا يختلف عما سبق؛ إِذْ يبدو أكثر وضوحًا وأكثر جرأةً في تناول أشد القضايا حساسية بين الإسلام والمسيحية، فينصف الإسلام وكتابه القرآن إنصافًا واضحًا، ويبدو أن الفِرقة البروتستانتية لها أثرها النسبي في التحرّر العقلي في البحث العلمي، وبخاصّة في ألمانيا على نحو ما نرى هنا عند (باول)، وعند (شتيبات) في كتابه (الإسلام شريكًا)، وعند (مراد هوفمان) الذي قاده البحث العقلي الموضوعي إلى إعلان إسلامه عام (١٩٨٠م)[(١)]، وعلى الرغم من إدراكنا التام أنّ باول له عقيدته المسيحية التي

---

(١) الإسلام شريكًا؛ دراسات عن الإسلام والمسلمين، فريتس شتيبات، ترجمة: عبد الغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم: ٣٠٢، الكويت، أبريل ٢٠٠٤م. الإسلام في الألفية الثالثة؛ ديانة في =

يؤمن بها، وأنه -حسَب أقواله في كتابه هذا- لا يَعتبر نفسَه مسلمًا، فإنْ كان كلامه عن عيسى عليه السلام يَكتسب في هذا الفصل أهمية خاصّة للمسلم وللمسيحي على سواء؛ لأنه يعمل أستاذًا لعلوم الطائفة البروتستانتية والديانات المقارنة، ومن مظاهر هذه الأهمية: اعتماده في حديثه عن نبي الله عيسى على القرآن اعتمادًا يكاد يكون كاملًا، وذلك من خلال تتبّعه لسيرة هذا النبي الكريم من خلال ما ورد في سور القرآن الكريم، وذلك منذ ولادته وحتى رفعه إلى السماء، وفي هذه السيرة تناول باول: حَمْلَه عليه السلام في بطن أمّه مريم، وكيفية ولادته، ومعنى الكلمة التي ألقاها الله إلى مريم، ورصد الفارق بين التصوّر الإسلامي والتصوّر المسيحي لمعنى الكلمة، وبيان إيجابية الطفل عيسى عليه السلام في دفاعه عن أمّه، وتناول مسألة الصَّلْب وأنها لم تحدث[(١)]. وفي هذه السيرة أيضًا أبرز باول منهج المقارنة الدائم بين ما جاء في القرآن وما جاء في الإنجيل عن عيسى، مع إثبات أنّ هناك مؤثرات خارجية أُضيفت للأناجيل في هاتين القضيتَيْن المهمّتَيْن، وإلى شيء من التفاصيل لهذه القضايا.

=

صعود، د/ مراد هوفمان، ترجمة: عادل المعلم، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ. الإسلام كبديل، لمراد هوفمان، الطبعة الرابعة، مكتبة العبيكان، الطبعة الرابعة، ١٤٢٣هـ.

(١) دروس قرآنية، ص١١٤.

- القضية الأولى: طبيعة عيسى عليه السلام:

بدأ المؤلِّف هذا الفصل ببيان أسباب كُره المسيحيين للقرآن، مبينًا أن ذلك يرجع إلى حديث القرآن عن عيسى عليه السلام على أنه عبد الله ورسوله، وأن «المسيحيين يجعلون من اعتراضهم على القرآن مجرّد ادّعاء دفاعي لتبرير التراخي المعهود لديهم عن الاشتغال بفهم القرآن، وحتى لا يضطروا إلى التخلي عن أن دعواهم تملّك الحقيقة المطلقة»[1].

ويرى باول أنّ القرآن الكريم لم يزِدْ على الحقيقة عندما قرّر أنّ عيسى عبدُ الله ورسوله، ويستشهد على ذلك بآيات من سور: [البقرة: ٨٧، ١٣٦، ٢٣٥. آل عمران: ٣٣- ٥٧، والنساء: ١٥٦- ١٥٩، ١٦٣، ١٧١. والمائدة: ١٧، ٤٦، ٧٢- ٧٧، ٧٨، ١١٠- ١٢٠. الأنعام: ٨٥. التوبة: ٣٠- ٣٣. ومريم: ٢- ٤٠. والمؤمنون: ٥٠. والأنبياء: ٨٩- ٩٤، الشورى: ١٣، الحديد: ٢٧. والصف: ٦، ١٤][2]. وبدأ باول قصة عيسى عليه السلام بما ورد في سورة مريم عن زكريا وابنه يحيى عليهما السلام وذلك من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤]، إلى قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ [مريم: ٦]، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا

(١) دروس قرآنية، ص١٠٧.

(٢) دروس قرآنية، ص١٠٧، ١٠٨.

﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٧]. ويردّ باول بعد ذِكره هذه الآيات الفهمَ الخاطئ للمستشرقين لقوله تعالى: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾، فيقول: «تعرّضَت هذه الملحوظة القرآنية للنقد؛ لأنّ هذا الاسم كان معروفًا آنذاك، وقبل ذلك أيضًا، إلا أنّ الردّ على هذا النقد يمكن أن يُستمد مما جاء في إنجيل لوقا (١/ ٦١)، حيث يؤخذ على الأمّ أن هذا الاسم (يحيى) لم يَتَسَمَّ به أحد في عائلتها من قبل»[(١)].

وبمناسبة ذكر يحيى عليه السلام يعرض باول جانبًا من سيرة يحيى، ويبدؤه ببشرى زكريا عليه السلام أن يرزقه الله ولدًا اسمه يحيى، الذي أشارت سورة مريم إلى شيء من صفاته، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ١٢][(٢)].

وينتقل بعد ذلك للحديث عن مريم فيذكر ما ورد بشأنها في سورة مريم، وذلك من قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٧]، إلى قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ [مريم: ٢٢]، وينقل تفسير الآيات عن الزمخشري الذي يقول فيه: «إنّ

(١) دروس قرآنية، ص١٠٨.

(٢) دروس قرآنية، ص١٠٩.

جبريل ظهر لمريم على هيئة شاب يخلو من أيّ عيب، ونفخ فيها من روح الله»[1].

ويعقب باول على هذا التفسير بقوله: «وتبعًا لِمَا جاء في القرآن فإنّ عيسى لا يحمل فقط روحَ الله، بل إنه خُلق من روح الله، وهذا يعني أنّ ذاته ومنذ البداية من روح الله التي أصبحَت بشرًا، وهذا هو المقصود بأنه آية للبشر، وأنه يمثل رحمة الله، قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٣]، إلى قوله: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٦].

لا شكّ أنّ كلام باول عن عيسى عليه السلام تبدو عليه الصبغة المسيحية التي ترى أنّ عيسى جزء من ذات الله، أو أنه إله، أو أنه ثالث ثلاثة -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- وهذا يتنافى مع العقيدة الإسلامية تمامًا، فالروح في الإسلام هو (روح القدس)، أي: جبريل عليه السلام وهو منفصل تمام الانفصال عن الذات الإلهية، بل هو مخلوق بأمر الله ويعمل بإذنه، وعيسى عليه السلام هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم بواسطة جبريل، ولا يعد في طبيعته عما قاله الله سبحانه وتعالى عنه

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، للزمخشري (٣/ ٢٥)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.

في القرآن: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩][1].

بعد هذا العرض ينتهي باول إلى نتيجة يقول فيها: «إنّ العرض القرآني لقصة ميلاد عيسى جديرة بالاستقلال عمّا ورد في إنجيلَيْ متّى ولوقا، ولا يقلّل ذلك من أهمية أنها قد وردت بلا شك في روايات سابقة، ومثال ذلك ما نجده في الروايات التي نُسِبَت خطأ إلى متى»[2].

ويعرض باول لرواية إنجيل متّى عن الميلاد ويبدؤها من هروب مريم من مصر إلى حدوث الميلاد، وينقل هذه الروايات عن كتاب: أساطير عن العهد الجديد (١/ ٣٠٧) لهينيكه شنيميلشر، ويعقِّب على هذه الروايات بقوله: «إنّ الرواية القرآنية هي من حيث دلالاتها الأصلية تُعتبر أكثرَ أصالةً من الأساطير المسيحية حول ميلاد عيسى عليه السلام»، ثم يقول: «وباعتبار النموذجية (الأصالة أو الأولية) فإنّ الرواية القرآنية تُعتبر الأكثرَ مطابقةً للأصل في هذا الشأن»[3].

---

(١) راجع ما دار بين النبي صلى الله عليه وسلم ووفد نجران حول طبيعة عيسى عليه السلام، ففيه جلاء تام للفرق الشاسع بين العقدية الإسلامية وبين العقدية المسيحية حول هذه الطبيعة. وراجع في ذلك: جامع البيان، للطبري (٣/ ٢٨٩). والسيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٥٧٥). ودلائل النبوة، للبيهقي (٥٣٨٢/ ٣٩٣)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي (٢/ ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠).

(٢) دروس قرآنية، ص١١٠.

(٣) دروس قرآنية، ص١١١.

ويستمر باول في عرض سيرة نبي الله عيسى عليه السلام من خلال الأناجيل بعرضِ ما وردَ في إشعيا إصحاح (٧، ٩، ١١)، وما ورد في ميشا إصحاح ٥، ليصل بعد هذا العرض إلى خلاصة يقول فيها: «إنّ البروتستانتية سقطتْ في عقدة الأب، وإنّ الكاثوليكية سقطتْ في عقدة الأم»(١).

وينقل نصًّا مطوّلًا عن الباحثة (حنا فولف) وعن (ك.ج يونج) عن الرمزية في قصة مريم وولادتها لعيسى عليه السلام، ثم يعقّب قائلًا: «إنّ هذا الطفل في القرآن -يقصد عيسى عليه السلام- لا يُوصف بالضعف مطلقًا، إنه يتمتع بثقة ذاتية خالصة، بعد ولادته مباشرة يساعد أمّه ويناديها بألّا تحزني، ويردُّ على ألسنة الفضوليين بأنه عبدُ الله آتاه الكتاب وجعله نبيًّا: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]»(٢).

ويقول أيضًا: «إنّ ما وردَ في سورة مريم من صفاتٍ وَصَفَ بها عيسى نفسَه جديرة بالاهتمام. إنّ وَصْفَهُ لنفسِه بأنه عبدُ الله تنقلنا إلى عصر المسيحية الأصلية في تاريخ الرّسل، وفي تعاليم المسيحية الأولى الموجودة في تعاليم الرسل الاثني عشر يسمَّى عيسى عبد الله، هذا ما نجده في تاريخ الرسل (٣/ ١٣): (لقد رفع الله عبده عيسى إلى درجة العظمة)، وجاء في (٣/ ٢٦): (من

(١) دروس قرآنية، ص١١٣.

(٢) دروس قرآنية، ص١١٤.

أجلكم أخرج الله لكم عبده وبعثه يبارككم من خلال تطهير كلّ واحد منكم من ذنوبه)، وفي)٤/ ٢٧) جاء: (نعم، لقد اجتمعوا -قومه- في هذه المدينة ضدّ عيسى عبدك المقدس)، (والمعجزات من خلال عبدك المقدس عيسى)، وفي تعاليم الرسل الاثني عشر: (نشكر الله في العشاء المقدس بوعاء من خمر داود المقدّس عبدك الذي أظهرته لنا خلال عيسى عبدك) (٢/ ٩). ومن الغريب أنّ كلًّا من داود وعيسى قد وُصف بأنه عبد الله في كل المواضع المذكورة في تاريخ الرسل الاثني عشر، وتذهب النظرة المتعمّقة في ذات الوقت إلى نشيد عبد الله المذكور في كتاب أشعيا الثاني الإصحاح: ٤٢، ٤٩، ٥٢، وما بعده، وجاء أيضًا: (انظر هنا يا عبدي إلى ما أتمسّك به، هو مصطفاي -من اخترته- والذي رَضِيَتْ عنه نفسي، لقد وضعتُ روحي عليه لكي يبلغ الحقيقة وينشرها بين الشعوب)، وفي إشعيا (٤٢/ ١): (إنّ عبد الله هو الذي يحمل روح الله، وهو أيضًا الذي وُصف بأنه موسى الثاني)»[(١)].

وبهذه الأدلة القاطعة التي تبيِّن بشرية عيسى عليه السلام وتتفق مع ما جاء في القرآن الكريم يختم باول حديثه حول القضية الأولى.

---

(١) دروس قرآنية، ص١١٥، ١١٦، وراجع: ص١١٧، ١١٨، ١١٩. وفي هذه الصفحات تحدث باول عن معجزات عيسى عليه السلام كما وردت في القرآن أيضًا.

وأمّا في **القضية الثانية**، وهي **قضية صَلْبِ عيسى** عليه السلام فيبدؤها باول بالحديث عن الحواريين، ويستشهد في ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]؛ ليؤكد أن ما جاء في هذه الآية يتوازى مع ما جاء عند بطرس وشهادة الأتباع في الأناجيل.

وبعد هذا التمهيد أو المقدمة يدخل باول في صُلب القضية قائلًا: «وتأتي الآيات ذات المغزى القويّ في سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ويكتمل معنى هذه الآيات بما وردَ في سورة النساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النساء: ١٥٧]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]». ويعقِّب باول على هذه الآيات بقوله: «تتضمن هاتان السورتان -آل عمران والنساء- القولَ بأنّ اليهود لم يقتلوا

عيسى عليه السلام ولم يصلبوه، بل صلبوا رجلًا آخر يُشبِهُه، لقد رفعه اللهُ إليه، أو أخفاه عنهم في مكان يظلّ فيه إلى أن يحين موعد عودته في نهاية الزمان»[(١)].

ويؤيّد باول تفسيره هذا بما ذهب إليه الغنوصيون بأنّ أحدًا آخر غير عيسى هو الذي صُلِب، وأنه (سيمون الكيريني)، وينقُل باول عن كتاب (الأساطير في العهد الجديد) رواياتٍ طويلةً عن التفسير الرمزي لمعنى الصليب؛ لينتهي إلى نتيجة يحاول فيها المزاوجة بين الرمزية والحقيقة في مسألة الصَّلْب، فيقول: «لقد أخطأت المسيحية الكنسية بشكل غير موضوعي تمامًا في تفسيرها للصليب الذي هو في الحقيقة مجرّد معنى رمزي يكون فيه عيسى تعبيرًا عن المحبة الإلهية للبشر، والمرتبطة بنظرية طلب الغفران من خلال أضحية، فأهملت المعنى الرمزي للصليب بصفته تعبيرًا عن كمال الإنسان الذي بشر به وهو لا يزال في مرحلة التحقيق»[(٢)].

وبعد هذه النتيجة يدخل باول في الإغراق في الرمزية مرة أخرى في محاولة منه لتفسير معنى الصليب، لينتهي بعد كلام طويل إلى القول: «بأنّ عيسى (مَثَل) ومَثَلٌ أعلى، ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]، وهو إحدى علامات الساعة، وكذلك أمّه آية، قال

---

(١) دروس قرآنية، ص١٢٠.

(٢) دروس قرآنية، ص١٢١.

تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]»[١].

ويعرض وجهة النظر الإسلامية لمسألة الصَّلْب من خلال تفسير البيضاوي[٢]، ويعقّب قائلًا: «إنّ ما وردَ في إنجيلي مرقس ويوحنّا بخصوص صلبِ المسيح يتوازى مع ما ورد في القرآن وبخاصة في نداء عيسى: يا الإلهي! يا الإلهي! لماذا تركتني؟»[٣]. وفي نهاية هذا الفصل يقرّر باول: «أنّ القرآن وضع عيسى في دائرة رسل الله، وأنّ الله يُنجِي رسله مما يحيكه لهم أعداؤهم، ويوقع الماكرين في مصيدة مكرهم»[٤].

(١) دروس قرآنية، ص١٢٣.

(٢) أنوار التنزيل (١/ ٢٧٦).

(٣) دروس قرآنية، ص١٢٣.

(٤) دروس قرآنية، ص١٢٤.

- النبي: خاتم الأنبياء ﷺ:

هذا العنوان يضمّ عنوانين لفصلين متباعدين في كتاب باول؛ عنوان الفصل الأول هو (النبي)، وعنوان الفصل الثاني هو (خاتم الأنبياء)، ولا أرى سببًا علميًّا منهجيًّا وجيهًا في الفصلِ بينهما وجَعْلِهِما فصلَيْن؛ لأنّ باول يتحدّث في الفصلَين عن النبي ﷺ، لكنه جعل فصل (النبي) هو الفصل الثالث، وجعل فصل (خاتم الأنبياء) هو الفصل السابع، وفَصَلَ بينهما بثلاثة فصول، هي: الفصل الرابع وعنوانه: (حكم العالم وخالقه)، والفصل الخامس وهو (الرسل)، والفصل السادس وهو (عيسى)، وسبق أن ذكرتُ أنني سأجمع تحت عنوان فصل (الرسل) الفصول الأخرى التي تتعلّق بالأنبياء كـ(النبي)، و(عيسى)، و(خاتم الأنبياء)، وأشرتُ آنفًا إلى أنّ باول كان يجب عليه أن يُعَرِّفَ هذا النبيَّ أكثر من ذلك، بأن يقول مثلًا: (النبي محمد)، أو يقول: (النبي الخاتم)، إلّا أنه لم يفعل شيئًا من ذلك، ولعلّه يعتمد على أنّ الكتابَ كلَّه يدور عن القرآن والإسلام، وأنّ القارئ سيفهم أن المقصود بالنبيّ هو نبيّ الإسلام.

بدأ باول فصل (النبي) بآيتين من سورة الشورى، هما: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ [الشورى: ٥١]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقبل أن نتحدّث عن مضمون هذا الفصل وطريقة باول في تناوله فإنّ تصديره لهذا الفصل بهذه الآيات يكشف عن حُسنِ الاستشهاد بالقرآن الكريم، فهو يدرك من معانيه الكثير، ويعرف كيف ينتقي الآيات التي تناسب موضوعه مناسبةً تامة.

وفي رأيي أنّ باول يحاول بذكر هاتَيْن الآيتَيْن الردّ على ما سيذكره في هذا الفصل من روايات المستشرقين عن السنوات الأولى من حياة محمد ﷺ؛ فلقد استعرض باول جانبًا من السيرة النبوية تناولَ فيه السنوات الأولى من حياة النبي ﷺ وحتى حادث الإسراء، ونلاحظ على هذا العرض ما يلي:

١- اعتماده على مصادر المستشرقين المشوهة للسيرة النبوية، تتمثّل في: (محمد والقرآن) لرودي بارت، و(أساطير القرآن) لبيلتز، و(محمد) لريتستيانو، و(محمد) لدير منجهيم، و(محمد؛ حياته وعقيدته) لتور أندريه، وكلّها لمستشرقين أثاروا العديد من المطاعن في السيرة النبوية.

٢- ردّد باول ما قاله هؤلاء المستشرقون من مطاعن في السيرة النبوية دونما أيّ تعقيب، ومنها:

أ- التشكيك في رواية السيرة عن جمعِ محمد للقبائل، وحسمِ الخلاف بينهم في مسألة وضعِ الحجر الأسود[١].

---

(١) دروس قرآنية، ص٦٧.

ب- القول بأنّ الوحي كان يأتي محمدًا وهو نائم، وأنه ردّده أثناء نومه، وأنه كان يُعَانِي من ضيقٍ نَفْسِيٍّ شديد أثناء ذلك[1].

ج- التشكيك في رواية الإسراء والمعراج[2]، ولعلّ المترجِم لكتاب باول كان مُحِقًّا عندما عقَّب في الحاشية على هذا الفصل بقوله: «يبدو واضحًا أن المؤلِّف يتبنّى مع وجهة النظر السائدة عند معظم المستشرقين والتي تتناقض مع وجهة النظر الإسلامية، إلا أنّنا سوف نجده في الفصول التالية، وبصفة خاصّة في الفصل الأخير (خاتم الأنبياء) يؤكّد صِدْق نبوّة محمد ﷺ، وكأنّه هنا يعرض فقط لِما يرِدُ في المؤلَّفات الغربية التي تبحث في هذا الموضوع»[3]، وهذا القول هو ما يجعلنا نفضل ردّ المؤلف نفسه على كلّ ما ردّده من شبهات كما سيأتي في الصفحات التالية.

---

(١) دروس قرآنية ص٦٧.

(٢) دروس قرآنية، ص٦٧.

(٣) دروس قرآنية، ص١٤٣، ١٤٤ حاشية رقم: (٦٠)، وهذا القول يؤكّد ما ذهبتُ إليه من العلاقة اللازمة بين الفصلين: فصل (النبي)، وفصل (خاتم الأنبياء)، وأن الفصل بينهما كان متعسفًا.

- خاتم الأنبياء:

بدأ باول هذا الفصل بنقله نصًّا عن السيرة النبوية لابن إسحاق[1]، وتضمّن هذا النصّ الوثيقة التي وضعها رسول الله ﷺ لمجتمع المدينة فور وصوله إليها، والتي جمع فيها بين طوائف المدينة على كلمةٍ سواء، ويحاول باول بوضعه هذا النصّ في صدارة هذا الفصل أن يردّ على الشبهات التي يثيرها المستشرقون حول الحروب التي خاضها محمد ﷺ ضد أعداء الإسلام، وذلك بذِكْره تاريخ سُلطة النصارى، وكيف أنّ الكنيسة جعلت لها سُلطةً أرضية، يقول باول: «إنّ النُّقَّاد المسيحيين قد تجاهلوا عمدًا أنّ المسيحية التي تدّعي أنها مُحبة للسلام قد أسلَمَت نفسَها لقبضة السلطة، إضافةً إلى ذلك -وفي دائرة الكنيسة اللوثرية- فقد اخترعت الكنيسة نظرية خاصّة تسمى نظرية المملكتين: مملكة الأرض، ومملكة السماء. ومن قبل طوَّرت مسيحية العصور الوسطى نظرية تفرِّق بها بين القيصرية والبابوية، وبحَثَتْ بطريقة مليئة بالنفاق عن الذّراع الأرضي للكنيسة، أي المُلك والسلطة»[2].

وعلى الرغم من يقيننا أن محمدًا ﷺ لم يكن طالبَ سلطةٍ ولا حُكْمٍ، فإن هذه العبارة تعني -كما يرى باول- أنّ الكنيسة التي أنكرَتِ السلطةَ والقيادةَ

(١) السيرة النبوية (١/ ٥٠٣، ٥٠٤).

(٢) دروس قرآنية، ص١٢٨.

والحكمَ على محمد ﷺ هي نفسها التي دعَت إلى المُلك والسلطة، فما ذنب محمد أن يسير على سنن الأنبياء السابقين من قبله كداود وسليمان، وهما من الأنبياء الملوك ذوي السلطة، والذين يؤمن بهما المسيحيون؟ كما يردّ باول على هذه الشبهات ببيان عالمية الإسلام وتسامحه في الدفاع عن سائر دُور العبادة: الإسلامية منها وغير الإسلامية، مستشهدًا في ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. ومن قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] يبيِّن باول أنّ التسامح الإسلامي -مقابلًا بالتسامح المسيحي- ليس سلبيًّا، بل عمليًّا إيجابيًّا، ومثل هذا التسامح لا يوجد في العهد القديم ولا العهد الجديد[1]. ويؤكّد باول تسامح الإسلام مرة أخرى بما يلي:

(١) دروس قرآنية، ص١٢٩.

أ- صحيفة المدينة المنورة التي وضعها رسول الله ﷺ، والتي تقوم على سموّ العلاقات الدينية بين الإسلام وغيره من الأديان.

ب- يرى باول أنّ التسامح الإسلامي ينبع مباشرة من القرآن الكريم، ويُعيد الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

ج- ويرى باول أن القرآن الكريم يحمل في آياته الدعوة العالمية لدخول غير المسلمين في الإسلام، ولا يمكن أن يتجاهل المسيحيون ذلك؛ لأن رسالة القرآن تقوم على الإيمان بالحوار للوصول إلى الاعتقاد الصحيح.

د- ويؤكّد باول أن الله لم يتَجَلَّ للناس فقط في الكتاب المقدّس، فما الذي يمنع أن يتجلى الله ﷻ بمعجزاته في القرآن؟ ومن الذي يجعل هذا التجلّي حكرًا على الكتاب المقدّس دون سواه[1]؟ لكن باول -على الرغم مما نشعر به من خلال ردوده السابقة من فهمه لعالمية الإسلام- يتراجع عن هذا المفهوم قائلًا: (إنّ موقف محمد التوحيدي الديني يرجع -بلا شك- إلى أنّ محمدًا كان في البداية يَعتبر نفسَه النبيّ الذي أرسله الله للعرب...إلخ»[2].

وفي الحقيقة إنّ استخدام باول لأسلوب التأكيد بقوله: «بلا شك» يجانبه الصواب؛ وذلك لأن محمدًا ﷺ كان من اللحظة الأولى يدرك تمامًا أنه رسولٌ إلى العرب والعجم، بل وللإنس والجن، وسور القرآن المكي وآياته تؤكّد هذه العقيدة[3]، ودخول بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي في الإسلام يعدّ دليلًا عمليًّا واقعيًا على عدم عنصرية الإسلام أو خصوصيته بالجنس العربي، وليس صحيحًا ما ذهب إليه باول من أنّ عدم دخول اليهود

(١) دروس قرآنية، ص١٣٠.

(٢) دروس قرآنية، ص١٣٠.

(٣) كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الفتح: ٨].

والنصارى في الحوار مع الإسلام هو الذي جعل الإسلامَ ديانةً عالمية[1]، مستشهدًا على ذلك بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وما ذهب إليه باول في استشهاده بهذه الآية ليس صحيحًا لسببين:

الأول: ما سبق أن بينّاه من دخول أجناس من غير العرب في الإسلام، وما تضمَّنه القرآن المكي من حوار مع اليهود والنصارى في عقائدهم كثير جدًّا[2].

والسبب الثاني: أنّ الاستشهاد الذي ساقه باول ليس في محله البتة؛ لأنّ هذه الآية أتت في سياقِ الحديث عن قصة زيد وزواجِ رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش، وهَدْمِ مسألة التبنّي وما كان يترتب عليها في المجتمع المدني[3].

وفي رأيي أنّ الاضطراب الذي يعانيه باول في موقفه الفكري من الدين الإسلامي، هو الذي يؤدّي به إلى الانزلاق في مثل هذه الشُّبُهات، ودليلُ ذلك أنه أتْبَعَ هذا الرأي عن عالمية الإسلام بقولٍ فيه كثيرٌ من الإنصاف للنبي ﷺ وللقرآن، يقول باول: «إذا كان محمد آخرَ الأنبياء فإنّ هذا يعني أن القرآن هو خاتم الوحي، إنّ الوحي القرآني هو دَفْعَة مؤسّسة ودافعة للتاريخ، هذه الدفعة

(١) دروس قرآنية، ص١٣١.

(٢) راجع: تفسير القرطبي (١٤/ ١٧٣). وتفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٠). وفتح القدير (٤/ ٤٠٦).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٧٣). وتفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٠). وفتح القدير (٤/ ٤٠٦).

هي التي أعطاها اللهُ للإنسانية، وانطلاقًا من هذه الدفعة بدأت الإنسانية تتطوّر وتستقل شيئًا فشيئًا مستخدمة العقل. إنّ القرآن هو في ذات الوقت آخر الكتب السماوية القديمة، وأول الكتب السماوية الحديثة، وفي هذه المناسبة لا بد أن نتذكّر الدفعة التاريخية التي قدّمها الإسلام المؤسَّس على القرآن إلى الغرب ليبني وعيه الحديث»[1]، ويجعل باول من هذا القول منطلقًا للحديث عن خاتمية محمد ﷺ، ويناقش هذه المسألة من وجوه:

أ- ما ورد في القرآن في سورة الصف عن البشارة بمحمد على لسان عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف: ٦].

ب- في شرح هذه البشارة عند المسلمين وعند المسيحيين يقول باول: «وحتى نفهم البشارة لا بد أن نعرف أنّ (أحمد) تتفق في المعنى تمامًا مع (محمد) أي: الإنسان الذي يَحمَدُه الناسُ ويرضَونه. هو إذن (محمد) الذي ذكره عيسى باسم (أحمد)، إلا أنّ كلمة أحمد، اعتبرت تبشيرًا بما يسمى المُواسِي أو المعضِّد (باركليت) الذي حسَبَ ما رَوى يوحنّا عند خطبة الوداع

(١) دروس قرآنية، ص١٣١.

لعيسى أنه سوف يأتي من بعده»[1]، ويثبت باول بأكثر من دليل أن (باركليت) لا تعني إلا محمدًا، فيقول: «إنّ كلمة (باراكليتوس) اليونانية تصعب ترجمتها إذا أراد الإنسان أن يعبر عن المعنى الذي أراد أن ينقله يوحنّا عن عيسى في بشارته، ويمكن ترجمة هذه الكلمة بـ(مُدافِع، مُسانِد، مُواسِي)، والأفضل أن يأخذ الإنسان هذه الكلمة كما هي في (اليونانية) ويحتفظ بمعناها الذي يتناسب مع مجمل ما جاء في إنجيل يوحنّا؛ لأنّ المقصود بـ(باركليت) هو رسولٌ ثانٍ لاحقٌ على عيسى، والذي سوف يكمل رسالته. ففي إنجيل يوحنّا (١٤/ ١٦) يتحدث عيسى عن هذا الموضوع لأول مرة، فيقول: «سوف أرجو الله أن يرسل إليكم (باركليت) آخر»، وفي يوحنّا (١٦/ ٧- ١٣): «خير لكم أن أذهب؛ لأنّني إذا لم أذهب لن يأتي إليكم الـ(باركليت)، أمّا إذا ذهبتُ فسوف أرسله إليكم... وعندما يأتيكم سوف يرشدكم إلى الحقيقة الكاملة».

ومن الأدلة التي يسوقها على رأيه في بيان معنى البشارة الواردة في القرآن؛ ما يعتقده المسلمون من تحريف لكلمة (بيريكلتيوس) التي تَعْنِي أحمد أو محمد، إلى كلمة (باركليت) التي تعني المُواسِي أو المعضِّد، وذلك لإبعاد حقيقة مجيء نبي بعد عيسى عليه السلام[2].

---

(١) دروس قرآنية، ص١٣١.

(٢) دروس قرآنية، ص١٣٢.

ومن الأدلة أيضًا أنه يوجّه سؤالًا لبني دينه المسيحيين قائلًا: «إن الأهمّ من الافتراضات في بيان معنى (باركليت) بالنسبة لنا -نحن المسيحيين- أن نبحث عن إجابة عن السؤال عما إذا كانت شخصية عيسى في العهد الجديد تحتاج إلى رسول لاحق، أي: إلى وحي جديد يكون من شأنه أن ينقُل لنا الحقيقة الكاملة ويجعل منها قوة تاريخية»[(١)].

وفي الإجابة عن هذا التساؤل الموضوعي ينقد باول تفسير إنجيل يوحنّا لكلمة (باركليت) بأنها (روح القدس)، ويؤكّد خطأ التفسير بما حدث في القرن الثاني بعد الميلاد من ظهور النبي (مونتانوس)، وهو مجدّد اعتَبرَ نفسَه الباركليت، أي: آخر الأنبياء، فحاربته الكنيسة واعتبرته زنديقًا، وهنا شخصية (ماني) وهي شخصية باركليتية أخرى (٢١٦- ٢٧٧م)، وحاربتها الكنيسة أيضًا[(٢)].

وهذا يعني أن الباركليت كان في التصوّر الأول للمسيحية قبل التحريف يعني أن هناك نبيًّا مرسَلًا بعد عيسى عليه السلام، تمامًا كما هو معروف في التصوّر

---

(١) دروس قرآنية، ص١٣٢. وراجع كلام الشيخ الغزالي عن هذه المسالة في كتابه: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ص٨٧، الطبعة رقم (٢٤)، مكتبة نهضة مصر، ٢٠٠٤م.

(٢) دروس قرآنية، ص١٣٢، وانتقدَ هذا التفسيرَ أيضًا الأبُ طيب تيزيني في كتابه (مِن يهوه إلى الله) نقلًا عن كتاب (يقرأ اليهود والنصارى القرآن وهم لا يعلمون) لمؤلفه/ فؤاد حسين نصار، ص٢٢١-٢٢٨، مجهول مكان الطبع، وأمّا سنة الطبع فهي ١٩٩٤م، ورقم الإيداع بدار الكتب هو ٩٥٤٠/ ٩٤.

الإسلامي، لكن الكنيسة حرّفَت هذا المفهوم لتفرِّغ معنى الباركليت من أيّ إشارة للإنسان (المادة)، وجعلته قاصرًا على الروح دون الجسد، فقالت: إن معنى (الباركليت) هو الروح القدس.

ويستمر باول في بيان أن الإسلام هو الدِّين الأخير للبشرية فيقول: «إنّ أوّلَ إنسانٍ أدرك أهمية المنهج الروحي والمنهج المادي معًا للإنسان هو محمد ﷺ، وتمثّلَت مهمته في بناء أمة إسلامية. وكانت هذه الأمة في صورتها الأولى واقعية، الإسلام هو دين عامة الناس، وهذا يعني أنها لم تكن دولة كنيسة، وكانت شريعتها ونظام حياتها مؤسَّسَيْن على قوانين عقلانية بشكلٍ شبه كامل، إلا أنها في ذات الوقت تتحقق كلية من خلال الاستسلام لإرادة الله متمثّلة في القرب الفعلي من الله، فمن خلال تأسيس الأمة الإسلامية التي كانت ومنذ البداية تضم كلّ المؤمنين بالله من مختلف الديانات؛ لم يكتفِ محمد بتبنّي بشارة عيسى بقدوم مملكة الله، بل حقّقها تاريخيًّا. إنّ الإنسان ليتوق دائمًا لرؤية كمال التاريخ الإنساني، حيث تتحقق ذاته مستقلة، ومستسلمة لإرادة الله في الوقت نفسه. لقد كان محمد أوّلَ مَن أعطى الإنسان دَفعة التطور في هذا الاتجاه من خلال الرسالة القرآنية... إنّ تصَوُّرَ إثبات وأحقّية إتمام الرسالة المسيحية لا بد وأن يقوم على الإيمان بأن محمدًا -وليس عيسى- هو تمام تاريخ الرسل إلى يوم القيامة.

ويؤكِّد هذا القول بما ذهب إليه المصلح يؤاخيم فون فيورا بأنّ الإسلام يمثِّل مملكة الله الروحية الثالثة...»[1].

ويؤكِّد بشرية عيسى من خلال الحديث عن اليهود المسيحيين فيقول: «لم يوصف عيسى قط بأنه الله حقيقةً في العقيدة المسيحية الأولى، ولا في العقيدة التي تطوّرت عنها عند من كانوا يسمَّون باليهود المسيحيين، ويمكننا القول بكلّ تأكيد إنّ عيسى الإنسان لم يكن لِيَقْبَلَ بتأليه شخصيته على الإطلاق؛ فهو يقول لأحد محدّثيه في إنجيل مرقس (١٠/ ١٨): (كيف تسنَّى لك أنْ تسمِّيَنِي الجليل؟ لا جليلَ إلا الله)»[2]. ويزيد التأكيد على التحريف الذي وقع في الإنجيل بشأن عيسى فيقول: «لا بد للإنسان أن يعترف في هذا الشأن بأن صورة عيسى قد عُرِضت بشكلٍ مُبالَغٍ فيه في ثنايا النصوص المسيحية الجاهلية الموجودة في الأناجيل الكبيرة مثل مرقس ومتّى ولوقا ويوحنّا... إنّ ما ورد في القرآن عن عيسى كان يؤمن به اليهود المسيحيون، لكن الكنيسة الجاهلية رفضت ذلك واستبعدته أثناء تدوين العهدين القديم والجديد، وهذا إن لم يكن تحريفًا فإنه يعدّ نظرة انحيازية، كما أنه لا يمكن وصف عيسى -طبقًا لِمَا وردَ في

(١) دروس قرآنية، ص١٣٤، وانظر في هذه المسألة شبهات مسيحية معاصرة حول الإسلام/ حسني يوسف الأطير، ص١٤٣. وانظر أيضًا كتاب: نظرة كتب العهد الجديد وعقائد النصرانية، ص٦٩، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

(٢) دروس قرآنية، ص١٣٥.

إنجيل يوحنّا- بما يسمَّى بالثالوث الذاتي، وقد تراجع اللاهوت الحديث شيئًا فشيئًا عن هذا التصور»[1].

وفي نهاية هذا الفصل يحاول باول أن يركّز رأيه في محمد وفي الإسلام بشكلٍ عام، ويؤكّد أنّ محمدًا هو النبي الخاتم بعد موسى وعيسى عليهم السلام، ويستدلّ على هذه النتيجة بما يلي:

أ- ما ورد في كتاب موسى الخامس (١٨/ ١٥) من قوله: «نبيّ مثلي سوف يخرجه الرّب إلهك من بين إخوتك فلا بد أن تتبعوه»، ويفسر باول المقصود بالنبي في هذه العبارة بأنه محمد ﷺ الذي أخرجه الله من صُلب إسماعيل جدّ العرب أخي إسرائيل جد اليهود.

ب- إنّ محمدًا ﷺ هو الذي كوَّن مجتمعًا سياسيًّا إنسانيًّا شعبيًّا عامًّا، وهي شخصية موسى الثاني التي أشارت إليها في سفر الإصحاحات (٢٤/ ١- ٩، ٤٩/ ١- ٦، ٥٠/ ٤- ١١، ٥٢/ ١٣- ٥٣).

ج- إنه يوصف في إشعيا (٤٢/ ٦، ٥٣) بأنه عبد الله الذي يعاني الصعاب.

(١) دروس قرآنية، ص١٣٦، ١٣٧.

المبحث الثالث: الحجر الأسود، وحكم العالم وخالقه:

في هذا المبحث سنتحدّث عن فصلين من فصول كتاب: (دروس قرآنية)، الفصل الأول سمَّاه باول: (حول الحجر الأسود)، والفصل الثاني سمَّاه: (حكم العالم وخالقه)، ونبدأ أولًا بالحديث عن الحجر الأسود.

رابني في بداية قراءتي لهذا الكتاب أنّ باول بدأ كتابه بالحديث عن القرآن مرددًا للعديد من الشبهات التي تناولناها بالردّ في المبحث الأول، ثم أتبعه بهذا الفصل عن الحجر الأسود الذي يمثّل جزءًا مهمًّا من الكعبة بيت الله الحرام، وقِبْلَة المسلمين في صلاتهم، ومحطّ احترامهم.

وبعد قراءتي لهذا الفصل (الحجر الأسود) لاحظتُ عدّة ملاحظات ترتَّب عليها عدد من النتائج التي قد نتّفق أو نختلف مع المؤلِّف بشأنها:

١- لاحظتُ أنّ المؤلِّف قد ملأ هذا الفصل بالروايات الغريبة عن آدم وحواء، وإبراهيم وإسماعيل عليهم السلام وهاجر، وبئر زمزم، والكعبة، والحجر الأسود؛ وأنه اعتمد على عدة مصادر لهذه الروايات:

أ- **المصدر الأول**: ما كتبه عنها المستشرقون أمثال: (رودي بارت، فيلهاوزن، شميدت، ميرسيا إلياده، وبيلتز، ك ج يونج)[١].

---

(١) راجع دروس قرآنية، ص٥١- ٦٢.

ب- **المصدر الثاني**: مقولات مُغْرِقة في التصوّف الإسلامي على نحو ما نقله عن ابن عربي، أو مغرقة في التصوّف اليهودي على نحو ما نقله عن (ج. شولم) حول التصوّر الصوفي للألوهية[١].

والمصدر الأول الذي اعتمد عليه المؤلِّف -علاوة على النقل الذي قد يُعْوِزُه الكثيرُ من المصداقية، والإحاطة التامة بلُغة النصّ المنقول عنه- فإن الروايات التي ذكرها (باول) نقلًا عن المستشرقين يبدو عليها بوضوح صبغة الإسرائيليات التي مُلِئت بها كتبُ التاريخ؛ كتاريخ الطبري، والبداية والنهاية لابن كثير، ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي[٢]، أو غير ذلك، أو مما نقله المفسِّرون في تفاسيرهم من أعاجيب الإسرائيليات مما لا يَقْبَلُه عقل، ولا يقرُّه شرع[٣].

وأمّا المصدر الثاني فإنّ المتصوّفة وفِكرهم الصوفي لا يمثِّلون كلَّ المسلمين من جهة، ومن جهة أخرى نجد فيهم مَن اشتطَّ في فهمه لبعض المسائل العقدية على نحو ما نجد عند ابن عربي الذي نقَل باول بعضَ أقواله[٤]. ولا نستطيع أن

(١) راجع دروس قرآنية، ص٥١- ٦٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، لابن جرير الطبري (١/ ٢٣٧- ٢٤٦)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ. والبداية والنهاية، لابن كثير (٢/ ٥)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ.

(٣) راجع مقدمة كتاب: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، للدكتور/ محمد أبو شهبة.

(٤) راجع: الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل، لابن حزم (٤/ ١٧٠)، مكتبة السلام العالمية، الطبعة الأولى، ١٣٤٨هـ.

نُلزم المؤلِّف بالمصادر الإسلامية الصحيحة المعتمدة، وبخاصّة إذا كان ذلك تقصيرًا منّا -نحن المسلمين- عن ترجمة هذه المصادر إلى اللغات الأخرى؛ كالإنجليزية، والألمانية، والفرنسية، وغيرها.

٢- إن الحجر الأسود على الرغم مما له عند المسلمين من مكانة عالية إلا أنه يظلّ حجرًا لا يضرّ ولا ينفع، وبهذا صرّح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، عندما قَبَّله قائلًا: «إني أعلمُ أنك حجرٌ لا تضر ولا تنفع، ولولا أنّي رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقبِّلُك ما قبَّلْتُك»[1]. واحترام المسلمين لهذا الحَجَر لا يعني بحالٍ من الأحوال عبادَتَه، أو الارتباطَ فيه بشيء من أمور الاعتقاد، قال ابن حجر في شرحه لهذا الأثر: «قال الطبري: إنما قال عمر ذلك؛ لأنّ الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخَشِيَ أن يَظُنَّ الجُهّالُ أنّ استلام الحَجَر في الحج من باب تعظيمِ بعض الأحجار، كما كانت العرب تفعل في الجاهلية، فأراد عمر أنْ يُعَلِّمَ الناسَ أنّ استلامَه اتِّباعٌ لفعلِ النبي صلى الله عليه وسلم»[2]؛ ذلك لأنّ شهادة المسلم التي يُعْلِن بها اعتناقَه الإسلامَ تمنعُ ذلك، فقوله: (لا إله إلا الله) نفيٌ منه لسائر ما يُعْبَد من دون الله، وإثباتٌ لعبادة الله وحده دون سواه. هذا إضافةً إلى مئات الآيات القرآنية

(١) صحيح البخاري، حديث رقم: ١٥٩٧.

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٣/ ٥٩٠، ٥٩١). وراجع: فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، للدكتور/ عليّ الصلابي، ص١٦٧، ١٦٨، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

التي تحضّ المسلم على توحيد الله ﷻ، وإفرادِه بالعبادة، والنفورِ من الشِّرْك بكلّ أنواعه وصوره.

٣- إنّ مسألة الاحترام لحَجَرٍ ما لارتباطه بأحداث دينية معيّنة، والتي يلحّ عليها باول بالنسبة للحجر الأسود محاولًا إلصاق ذلك بعقيدة المسلمين[١]، هذه المسألة بالنسبة للحَجَر الأسود لم يكن المسلمون فيها بدعًا من بين الأمم؛ ففي العهد القديم ما لا يُحْصَى من الأحجار التي وضعها نبي الله موسى تذكارًا لأحداث دينية عظيمة، فهل أمَرهم موسى عليه السلام بعبادتها وتَرْك الواحد الديّان؟ قطعًا لا[٢]، ناهيك عمّا لدى الأمم الأخرى كالهنود واليابانيين وغيرهم ممن تصل عندهم منزلة الأحجار إلى درجة التقديس والعبادة[٣]، وإذا كان رسول الله

(١) هذه المحاولة من الأفكار المعتادة عند سائر المستشرقين تقريبًا، وإن اختلف أسلوب تناولهم لها. راجع: الاستشراق في السيرة النبوية دراسة تاريخية لآراء (وات- بروكلمان- فلهاوزن) للأستاذ عبد الله محمد الأمين، ص٢٧٥- ٢٧٨، مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

(٢) انظر على سبيل المثال: الفقرة الرابعة من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج، ص١٢٥، من الكتاب المقدس، طبعة دار الكتاب المقدس في العالم العربي، د.ت، وقد أقام يوشع اثني عشر حجرًا تذكارًا لعبور الأسباط نهر الأردن بتابوت العهد، انظر: الفقرة التاسعة من الإصحاح الرابع من سفر يوشع، ص٣٤١، من الكتاب المقدس.

(٣) راجع: حكمة التشريع وفلسفته، للشيخ عليّ أحمد الجرجاوي، ص١٨٥، دار الفكر، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

في سيرته قد عادَى الأصنامَ الجاهلية عملًا بقوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وصحّ عنه ﷺ أنه لَعَن أوّلَ مَن جَلَبَ الأصنامَ إلى مكة(١)، أيسمحُ بعد ذلك لمسلم أن يجعل من الحجر الأسود صنمًا ليعبدَه؟ إنّ هذا لا يقول به عاقل، ولا تؤيده أدلة؛ لا علمية ولا ظنية.

٤- يمكن أن نتفق مع باول في القول بأنّ الحجر الأسود رمزٌ، لكننا نختلف معه فيما يعنيه بالرمزية في هذا الحجر، فالحجرُ الأسود -بل الكعبةُ كلُّها- رمزٌ يجمع المسلمين في شتى بقاع الأرض على هدف واحد، وهو التوجُّه إلى الجهة التي أرادها الله أن يتوجهوا إليها في صلاتهم، فهو رمز مؤثّر في وحدتهم، وهو

(١) مسند الإمام أحمد، مسند الأنصار، باب: حديث الطفيل بن أبيّ بن كعب عن أبيه، رقم: (٢٠٢٩٧)، طبعة إحياء الكتب العربية، بيروت، د.ت.

شارةٌ على تميّزهم دون سواهم من الأمم[1]، ولا علاقة البتة بين هذا الحجر وبين ذات الله ﷻ، فالمسلمون يعتقدون أن الله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وأنه سبحانه: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فكيف يقبلون في عقيدتهم معنى هذه الرمزية التي يقول بها المؤلِّف؟

٥- ومع هذا فقد وصل المؤلِّف إلى بعض النتائج المهمّة في هذا الفصل؛ فمن خلال حديثه عن وجود فكرة الإله عند البشر منذ القِدَم يقول المؤلّف: «لم يظهر الله بالمعنى الحقيقي فقط في الكتاب المقدّس -اليهودية والمسيحية- إنّ الكتاب المقدّس ذاته يُثبِتُ بما لا يدع مجالًا للشكّ أنّ الوحيَ الدينيَّ لم يبدَأْ بإبراهيم وموسى وعيسى، بل إنه قد بدأ حينما خلق اللهُ السماوات والأرض. هذا التصوّر لم يكن يومًا ما إسرائيليَّ الأصل، كما كان يُعتقد لفترات طويلة»[2]، ونتيجة أخرى يقول فيها: «هذا الوضع يُظهِر أنّ الله لم يمثِّل عند محمد ﷺ إلهًا جديدًا استعاره من اليهودية والمسيحية، لقد كان الإلهُ الحقيقي هو ربَّ البيت (الكعبة)، وفي الكعبة كان يوجد الصنم الخشبي (هُبَل) والذي لم يثبُتْ له حتى

---

(١) الاستشراق في السيرة النبوية، ص٢٧٧، بتصرف.

(٢) دروس قرآنية، ص٥٤.

الآن أية علاقة أكيدة بالله (الإله الحقيقي)، وقد كان أحيانًا يُدْعَى بربّ البيت، إلّا أنّ ذلك لا يعدُّ دليلًا على أنه المقصود بـ(الله)»[1].

فهذه النتائج صحيحة وحقيقية، وتتفق مع ما قرّره الإسلام من قواعد عن الخلقِ في عشرات الآيات القرآنية التي تبين أن الله ﷻ هو خالق كلّ شيء، راجِعْ قولَه تعالى على سبيل المثال لا الحصر: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

(١) دروس قرآنية، ص٥٤. ونقول: ولن يثبت ذلك مستقبلًا قطعًا.

- حكم العالم وخالقه:

هذا هو الفصل الثاني الذي سنتناوله خلال هذا المبحث، وهو الفصل الرابع من فصول الكتاب، وقد سمّاه المؤلف هكذا: (حكمُ العالم وخالقُه)، وأشعرُ بعدم اتساق في هذه التسمية، بل أشعر بثِقَلٍ في نطق هذا العنوان؛ ولذا فكان أَوْلَى بالمؤلِّف أن يسمِّيَه: (خالقُ العالم وحاكمُه)، أو (خلْقُ العالم وحكمُه)، وفي الموضعين يعود الضمير على الخالق الحاكم وهو الله ﷻ، أمّا التسمية الحالية فقوله: (حكمُ العالم) توحي بنسبة هذا الحُكم إلى غير الله، مع أن المؤلِّف لم يتناول مسألة الحكم في هذا الفصل! لا نسبةً إلى الله، ولا إلى البشر، وإنما كانت مادة هذا الفصل تدور في معظمها عن مسألتي الخَلْق والبعث. وربما يرجّح ما ذهبت إليه بصدد الثقل في هذه التسمية أن المترجم سمّاه في فهرس الكتاب: (الحكم والخالق للعالم)!

ويعدُّ هذا الفصلُ أصغرَ فصول الكتاب[1]؛ تناوَل فيه باول الحديثَ عن قضيتين مهمّتين، هما: تصوير القرآن لقضية الخلق، وفي بيان ذلك يستعرض ما في القرآن من آيات في سوره الأولى: كالقارعة، والتكوير، والهُمَزة، وعبَس، والطارق. وفي هذه القضية يقف أمام حديث القرآن عن أطوار الخلق، ويعتبر ذلك في السور المتأخرة، وهو اعتبار لا يقوم على دليل علمي قوي؛ لأن أطوار الخلق التي

(١) دروس قرآنية، ص٧٩- ٨٩.

استشهد بها باول وردتْ في سورتي: (المؤمنون، والحج)، وهما مكيّتان في رأي كثير من العلماء[1]، لكن باول في حديثه عن هذه القضية يقسم العهد المكي إلى ثلاثة أقسام:

في **المرحلة الأولى**: يرى باول فيها أن قصة الخلق لم تكن من موضوعات السور الأولى -بدايات الوحي- وكان التركيز فيها على بيان أنّ الله خالقُ كلّ شيء في كل آنٍ ومكان، ويستدل على ذلك بسورتي: (عبس: ٢٤- ٣٢، والطارق: ٥- ١٠).

وفي **المرحلة الثانية**: بدأ باول الحديث عن القضية الثانية، وهي قصة الخلق فقال: «في الفترة المكية الثانية (السنة الخامسة والسادسة من بعثة محمد ﷺ) نجد العرض التالي يتضمّن قصة الخلق؛ سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

ثم قال: أمّا الفترة المكية الثالثة (من السنة السابعة بعد البعثة إلى الهجرة) فنجد لأول مرة وصفًا تفصيليًّا لعملٍ استغرق ستة أيام في خلق السماوات

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني (١/ ١٧٠، ١٧١).

والأرض، يقول الله تعالى في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٩]، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠]، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

ويفتقر باول إلى الدليل العلمي الذي قسّم على أساسه الفترة المكية إلى ثلاثة أقسام؛ فجعل فكرة الخَلْق في المرحلة الأولى، وقصة الخَلْق في المرحلتين الثانية والثالثة، والفترة المكية من الناحية العلمية، وفيما يختصّ بما نزل فيها من قرآن لا يمكن تقسيمها على هذا الشَّكْل دون أدلة علمية واضحة تميّز كلَّ فترةٍ عمّا سواها، وهذا أمر يتعذّر وجوده، إضافةً إلى أنّ التفريقَ بين قصة الخَلْق وفكرة الخَلْق مسألةُ خلافٍ لفظيٍّ لا نجد له صدًى في التراث الإسلامي على النحو الذي يقول به باول، ورأى أنه في ذلك متأثّرٌ بقصة الخلق ذات التفاصيل الدقيقة المذكورة في سفر التكوين في العهد القديم[١].

---

(١) دروس قرآنية، ص٨٠، وكرر باول هذا التقسيم في فصل الرسل، ص١٠١، ١٠٨، ولم أعثر على هذا التقسيم إلا عند المستشرق (نولدكه)، ولم أجد له تفسيرًا علميًّا يمكن الركون إليه. انظر: في النبوات
=

وبعد هاتين القضيتين تحدّث باول عن تداخل فكرتي الخَلْق والبعث في القرآن، ودلّل على هذا التداخل بما ورد في سورة النبأ[(١)]. ويستطرد بعد ذلك في الحديث عن الجنة والنار كما جاء وصفهما في السورة المذكورة، وينقل عن (تور أندريه) صورة مجملة عن الجنة والنار، والثواب والعقاب، والحساب والميزان، وينقُل عنه -دون تعقيب- قولَه عن نعيم الجنة: «إنّ الحياة القاسية للبدو كانت وراء هذا التصوّر»، وهذا قول يُفهم منه أن محمدًا هو مصدر القرآن، وأنه حاوَل أن يؤثِّر على البدو بهذا التصوير، وإضافةً إلى أنه لا يقوم على دليل علمي البتة، فالقرآن لم يُحَدِّثْ البدو أو غيرهم عن الجنة فقط -كما قال (تور أندريه)- وإنما تحدّث عن النار أيضًا حديثًا مستفيضًا، وربطهما بعمل الإنسان في دنياه؛ إن كان صالحًا فله الجنة، وإن كان فاسدًا فله النار، وأحسَبُ أنّ الحوار الذي صوّره القرآن بين أصحاب الجنة وأصحاب النار في كثير من سوره يؤكّد ذلك، كما أن البدوي كان يتشبث بما كان عليه آباؤه من عبادةٍ للأصنام وخضوعٍ للأوثان، وكان ذلك من أهم القضايا العقدية التي تناولها القرآن أيضًا،

=

والسمعيات -تأصيل ودحض شبهات- للدكتور/ رضا الدقيقي، ص٢٣٣، مكتبة الصالح، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

(١) راجع: سورة النبأ، من: (١- ٤٠).

وقد سبق لنا الردّ في المبحث السابق عن كلّ الدعاوى التي قال بها المستشرقون عن مصدر القرآن[1].

وبعد أن نقَل باول بعضَ أبياتِ الشِّعْر عن ديوان (خُلدنامة) -كتاب الخُلد- للشاعر (يوهان فولفجانج جوته) حاولَ من خلالها أن يستكمل ما كتبه المستشرقون عن الجنة، ثم ردّ على كلّ ما قالوه عن الجنة في عبارة موجزة ختم بها حديثه في هذا الفصل فقال: «لقد كشفَ لي القرآنُ عن بُعْدٍ للجنة لم يره الرهبان والقساوسة والفلاسفة واللاهوتيون الذين أثّروا في دائرتي الثقافية»[2].

(١) راجع ما سيق في القضية الثانية من المبحث الأول من هذا البحث عن (مصدر القرآن الكريم).

(٢) دروس قرآنية، ص٨٦.

الخاتمة:

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ونصلِّي ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

حاولتُ في هذا البحث أن أقدِّم رؤيةً نقدية لكتاب (دروس قرآنية للمسيحيين؛ مدخل لدراسة كتاب المسلمين المقدّس)، لمؤلِّفه القِسّ الألماني (باول شفارتزيناو)، وجاءت هذه الرؤية في مقدّمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث.

في **التمهيد** رصَدَ البحثُ مكانةَ المؤلِّف، وبيانَ مذهبه البروتستانتي، ومدى أثرِ هذا المذهب في تناوُلِ قضايا الكتاب، واقترحَ الباحثُ تسميةً أخرى للكتاب وهي: (مدخل لدراسة كتاب المسلمين المقدس)، ورصدَ البحث بعض أهداف المؤلِّف؛ كالدعوة إلى الاعتراف المتبادل بين أصحاب الديانات الثلاثة: اليهودية، والمسيحية، والإسلام.

وفي **المبحث الأول**: نقَدَ الباحث المنهج العلمي الذي يتّبعه المستشرقون في عرض فكرهم عن الإسلام، وبَيَّن أنّ باول تأثّر بهم في محاولة استدراج القارئ المسيحي لقراءة كتابه، وبعدِ عرضِ ما ردّده باول من شبهات حول ترتيب سور القرآن الكريم، وآياته، وما جاء فيه من تكرار؛ فَنَّد الباحثُ هذه الشُّبهات، وردَّ عليها، وذلك من خلال المقارنة بين ما قاله بعض المنصفين من

علماء الغرب عن القرآن والكتاب المقدّس في هذه المسألة، وما أثبته باول نفسُه من وحدةٍ موضوعية للقرآن، وترابطٍ وثيقٍ بين ما نزل منه في مكة، وما نزل منه في المدينة.

وأطال الباحث في الردّ على القول بأنّ مصدر القرآن هو اليهودية أو المسيحية، ووصل إلى عدّة نتائج، من أهمها: استقلال القرآن الكريم في مصدره الإلهي عن أيّ مصدر آخر، سواءٌ كان يهوديًّا أو مسيحيًّا أو غيرهما، وأن المسيحية هي التي تأثّرت بالمنهج النقدي القرآني، وأن العلاقة بين محمد ﷺ واليهود، وما سادَها من خصام ومعارك ما كانت لتتيحَ النقل عنهم.

وفي **المبحث الثاني** الذي جعلتُه عن الرسل، وجمعتُ فيه بين أربعةَ فصول: (الرسل، وعيسى عليه السلام، والنبي، وخاتم الأنبياء). وقد عرضَ باول في فصلين منهما، وهما: (النبي والرسل) شبهاتٍ عديدةً حول نبوة محمد ﷺ، ثم يردّ على هذه الشبهات ردودًا جيّدة في الفصلين الآخرين، وهما: (عيسى عليه السلام، وخاتم الأنبياء)؛ فأمّا في فصل عيسى عليه السلام فقد اختلف منهجه عمّا في سائر الكتاب، فقد أثبتَ بالأدلة القرآنية، ومقارنتِها مع إصحاحات الكتاب المقدس أن عيسى عليه السلام لم يكن إلهًا، ولا ابن إله، وإنما هو عبدُ الله ورسوله، جعله اللهُ مَثلًا لبني إسرائيل. وبالأدلة نفسِها وبالمنهج نفسِه أثبتَ أنّ عيسى لم يُصْلَبْ كما يدَّعي النصارى، وإنما رفعه الله إليه كما قال الله في القرآن الكريم. وفي فصل (خاتم الأنبياء) يُثْبِتُ باول بالأدلة العقلية والنقلية، وباتّباع منهج المقارنة بين آيات

القرآن ونصوص الأناجيل أنّ محمدًا هو خاتم الأنبياء، وأنه «موسى الثاني»، «الباركليت» الذي بشّرت به الأناجيل، وينصُّ على عالمية الإسلام وتسامحه مع سائر الأديان السماوية الأخرى، وأنّ الله كما يتجلى في الكتاب المقدّس فإنه يتجلى في القرآن الكريم أيضًا، وأنّ الإسلام هو الذي كوَّن مجتمعًا سياسيًّا إنسانيًّا شعبيًّا عامًّا بقيادة محمد ﷺ.

وفي **المبحث الثالث** تتبّع الباحثُ مصادرَ المؤلِّف في فصلَيْن من فصول الكتاب، وهما: (الحجر الأسود، وحكم العالم وخالقه)، فوجد أنه يعتمد على ما كتبه المستشرقون عن العلاقة بين الحجر الأسود وعقائد الإسلام، ونبّه الباحث على أنه لا بد من الاعتماد على المصادر الإسلامية الصحيحة التي تبيِّن أنْ لا علاقةَ البتة بين هذا الحجر وعقيدة التوحيد الإسلامية. وناقش الباحثُ المؤلِّفَ في وسْمِهِ (حكم العالم وخالقه) حتى تتسق التسمية مع المعنى المقصود. وبَيَّن الباحث أنّ باول في هذا الفصل فرَّق بين فكرة الخَلْق وقصة الخَلْق في القرآن، وهو تفريق مفتعَل لا يعتمد على أدلة علمية قوية، كما قَسَّم المرحلة المكية -مرحلة نزول القرآن في مكة- إلى ثلاث مراحل دونما برهانٍ علمي على ذلك، وإنما تابَعَ المستشرقَ (نولدكه) في هذا التقسيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

المصادر والمراجع:

١- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٢- الاستشراق في السيرة النبوية؛ دراسة تاريخية لآراء: وات- بروكلمان- فلهاوزن، للأستاذ/ عبد الله محمد الأمين، مطبوعات المعهد العالي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٣- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د/ محمد أبو شهبة، مجمع البحوث الإسلامية السنة الرابعة عشرة، الكتاب الرابع، القاهرة، ١٩٨٤م.

٤- الإسلام شريكًا؛ دراسات عن الإسلام والمسلمين، فريتس شتيبات، ترجمة: عبد الغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم: ٣٠٢، الكويت، أبريل ٢٠٠٤م.

٥- الإسلام في الألفية الثالثة؛ ديانة في صعود، للدكتور/ مراد هوفمان، ترجمة: عادل المعلم، مكتبية العبيكان، الرياض- السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٦- الإسلام كبديل، لمراد هوفمان، مكتبة العبيكان، الطبعة الرابعة، ١٤٢٣هـ.

٧- إظهار الحق، لرحمة الله الهندي، تحقيق: عمر الدسوقي، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، المغرب، ١٣٨٤هـ.

٨- إظهار الحق، لمحمد عبد الحليم عبد الفتاح، دار الكتاب العربي، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٩- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، تحقيق وتقديم: الدكتور/ محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٠- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لعبد الله بن عمر البيضاوي، تحقيق: عبد القادر حسونة، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

١١- البداية والنهاية، لابن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ.

١٢- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ.

١٣- تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.

١٤- تاريخ الفكر المسيحي، القِسّ حنا جرجس الخضيري، دار الثقافة، مصر، د.ت.

١٥- التعصّب والتسامح بين المسيحية والإسلام، لمحمد الغزالي، مكتبة نهضة مصر، الطبعة (٢٤)، ٢٠٠٤م.

١٦- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠١هـ.

١٧- التكرار: أسرار وجوده وبلاغته في القرآن، للأستاذ حامد حفني داود، مطبعة حليم، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٤م.

١٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.

١٩- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار الريان للتراث، مصر، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.

٢٠- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشكّكين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤٢٥هـ.

٢١- حكمة التشريع وفلسفته، للشيخ عليّ أحمد الجرجاوي، دار الفكر، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٢- دروس قرآنية للمسيحيين؛ مدخل إلى كتاب المسلمين المقدس، باول شفارتزيناو، ترجمة: د/ السيد محمد الشاهد، دار قباء، مصر، طبعة ٢٠٠١م.

٢٣- دقائق التفسير، لابن تيمية، تحقيق: د/ محمد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٢٤- روح المعاني للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

٢٥- سنن النسائي، لأحمد بن شعيب النسائي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

٢٦- السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق: د/ أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، د.ت.

٢٧- سيرة النبي محمد، كارين أرمسترونج، ترجمة: د/ فاطمة نصر، د/ محمد عناني، كتاب مجلة سطور، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م.

٢٨- شبهات مسيحية معاصرة حول الإسلام، لحسني يوسف الأطير، مكتبة النافذة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٢٩- صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٣٠- الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، مكتبة عمار، القاهرة، ١٩٧٠م.

٣١- العبودية، أحمد عبد الحليم بن تيمية، مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ.

٣٢- الغارة على القرآن، للدكتور/ عبد الراضي محمد عبد المحسن، دار قباء للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م.

٣٣- الغرب والإسلام، لرجب البنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

٣٤- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، طبعة دار الريان للتراث، مصر، ١٤٠٧هـ.

٣٥- فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية في التفسير، للشوكاني، دار الوفاء، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٣٦- فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، للدكتور/ عليّ الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٣٧- الفصل في الملل والأهواء والنّحَل، لابن حزم، مكتبة السلام العالمية، الطبعة الأولى، ١٣٤٨هـ.

٣٨- في ظلال القرآن، دار الشروق، مصر، الطبعة الثانية عشر، ١٤٠٦هـ.

٣٩- في النبوّات والسمعيات (تأصيل ودحض شبهات)، للدكتور/ رضا الدقيقي، مكتبة صالح، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٤٠- القرآن والتوراة والإنجيل في ضوء العلم الحديث، لموريس بوكاي، دار الفتح للإعلام العربي، مصر، ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م.

٤١- القرآن وعلم النفس، للدكتور/ محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، الطبعة الرابعة، ١٤٠٩هـ.

٤٢- مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان، مكتبة وهبة، القاهرة- الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ.

٤٣- محاضرات في النصرانية، الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الخامسة، ١٣٩٧هـ.

٤٤- المحاور الخمسة في القرآن الكريم، للشيخ محمد الغزالي، دار الوفاء، مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.

٤٥- المسند، للإمام أحمد بن حنبل، طبعة إحياء الكتب العربية، بيروت، د.ت.

٤٦- معالم التنزيل، للبغوي، تحقيق: خالد العك، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٥هـ.

٤٧- المقدّمة، لابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٤٨- مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد الزرقاني، تحقيق: أحمد عليّ، دار الحديث، القاهرة، طبعة سنة ١٤٢٢هـ.

٤٩- النبأ العظيم، للدكتور/ محمد عبد الله دراز، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م.

٥٠- النبوّة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، لأحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

٥١- نظرة في كتب العهد الجديد وعقائد النصرانية، للدكتور/ محمد توفيق صدقي، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

٥٢- الوحي المحمدي، لمحمد رشيد رضا، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ١٤٢٤هـ.

٥٣- يقرأ اليهود والنصارى القرآن وهم لا يعلمون، لفؤاد حسين نصار، مجهول مكان الطبع، وأمّا سنة الطبع فهي ١٩٩٤م، ورقم الإيداع بدار الكتب هو ٩٥٤٠/ ٩٤.

الموسوعات:

٥٤- موسوعة أعلام الفكر الإسلامي، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٥٥- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، للدكتور/ مانع حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، الرياض، السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ.

٥٦- الموسوعة اليهودية والصهيونية، للدكتور/ عبد الوهاب المسيري، بيت العرب للتوثيق العصري والنظم، د.ت.

المجلات:

- مجلة التسامح، مؤسسة عمان للصحافة، السنة الثانية، خريف ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م.

- مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، السنة الثامنة، العدد الثامن عشر، ١٤١٢هـ.

- مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، السنة الرابعة عشرة، العدد الثامن والثلاثون، ربيع الآخر، ١٤٢٠هـ.